

لِقَاءِ أَبِي ظِيٍّ
نَجْوَى عَالَمٍ مُتَفَاهِمٍ وَمُتَكَامِلٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مجلس حكماء المسلمين
Muslim Council of Elders

لقَاءُ أَبُو طَلْحَةَ نَحْوَ عَالَمٍ مُتَفَاهِمٍ وَمُتَكَامِلٍ

مِنْ أَعْمَالِ
النَّزْوَةِ الدَّوْلِيَّةِ لِمَجْلِسِ حُكَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَكَنِيسَةِ كَانْتَرِبُري
الْمُنْفَعِدُ أَبُو طَلْحَةَ ، بِالْإِذْنِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ
فِي: ٢، ٣ صَفَر ١٤٣٨ هـ، الموافق ٢، ٣ نوفمبر ٢٠١٦ م

تَقْدِيمُ
عَلِيٍّ رَشِيدٍ النُّعَيْمِيِّ
الْأَمِينُ الْعَامُّ لِمَجْلِسِ حُكَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ

الطبعة الثانية

1439هـ / 2018م.

مُتَّعِد الطبع:



دار القدس العربي ، القاهرة

البريد الإلكتروني: dar.quds@gmail.com

هاتف : +20 1063652342

+202 25932057

فاكس : +202 25929153

تصميم الغلاف:

وائل حسن

ميديا بيتشكرز للدعاية والإعلان

هاتف: +20 1113354001

البريد الإلكتروني:

wael.hasan86@gmail.com

الصَّفُّ الطَّبَاعِيُّ والتنسيق: أ. ناصر محمد يحيى
المراجعة: الباحثون بمكتب إحياء التراث الإسلامي
بمشيخة الأزهر الشريف

رقم الإيداع: 2017/19018

الترقيم الدولي: 978-977-6601-17-8



مجلس حكماء المسلمين
Muslim Council of Elders

الإمارات العربية المتحدة

ص.ب ٧٦٩٥٦٤ أبو ظبي

هاتف: +971 2 30 73 777

فاكس: +971 2 44 12 054

البريد الإلكتروني: info@muslim-elders.com

الموقع الإلكتروني: www@muslim-elders.com

صورة الغلاف الخارجي:

منظر للجامع الأزهر الشريف بربشة

المستشرق الفرنسي بريس دافين

(1807 – 1879) Prisse d'Avennes,

وصورة لأوروبا الملكة (Europa regina) وهي

تصوير رمزي لخريطة قارة أوروبا الملكة التي ترمز

إلى العالم المسيحي المتحد في القرون الوسطى.

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية:

النعيمي، علي راشد

لقاء أبوظبي، نحو عالم متفاهم ومتكامل

ط - 2 القاهرة: دار القدس العربي،

1439هـ / 2018م.

ص ؛ 14.5 × 21 سم.

عدد الصفحات: 228

1 - علوم السياسة

2 - علم الاجتماع

3 - حوار الأديان والحضارات

4 - العنوان

(يُبَاعُ هذا الكتابُ بِسِعَرٍ رَمَازِيٍّ وَعائِدُهُ مُحَصَّصٌ لَطَبَاعَةِ كُتُبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ)

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للأزهر الشريف ومجلس حكماء المسلمين؛ ويُحفظُ إعادة إصدار هذا الكتاب، ويُمنع نسخهُ أو استعمال أي جزءٍ منه، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مُدجَّجة، أو أي وسيلة نشر أخرى، بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، إلا بموافقة الأزهر أو المجلس خطياً.

الفهرسُ الإجمالي للكتاب

- ٧ مُقدِّمةُ الكتابِ
- ٩ كلمةُ فضيلةِ الإمامِ الأكبرِ أ.د/ أحمد الطَّيِّب
- الحوارُ واجبٌ دينيٌّ وضرورةٌ إنسانيَّةٌ، للعلَّامة
- ٢٥ عبد الله بن بيّه
- ٥٥ التعدُّديةُ والحُرِّيَّةُ الدِّينيَّةُ، لمدير أنيس
- استراتيجيَّةُ التَّسامحِ بدولةِ الإماراتِ العربيَّةِ
- ٦٧ المتَّحدة، للبنى بنت خالد القاسمي
- ٧٥ بيتُ العائلةِ المصريَّةِ، للأبنا إرميا
- دورُ الدِّينِ في ترسيخِ الأخلاقِ والقيَمِ والمبادئِ
- ٩١ الإنسانيَّةِ، لمحمد قريش شهاب
- دورُ الأديانِ في تعزيزِ المُواطنةِ وترسيخِ المبادئِ
- ١١١ الإنسانيَّةِ، للسيد علي الأمين

عَقَبَاتُ الْحِوَارِ الدِّينِيِّ، وبعضُ الحُلُولِ فيما بين

المسلمين والمسيحيين، لحسن الشافعي ١٢٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَلِيعَةُ الْكِتَابِ

حمداً لله، وصلاةً وسلاماً على رسول الله .

وبعدُ :

فقد سَعِدَ المهتمُّونَ بشأنِ السَّلامِ العالَمِيِّ بانعقادِ مؤتمرٍ عالَميّ حِواريٍّ تشاؤريٍّ، على مَدَى يومين؛ حَمَلَ شعارَ: «نحوَ عالَمٍ مُتفاهِمٍ مُتكاملٍ» والتقى في إطارهِ «مجلسُ حُكماءِ المُسلمين»، و«كنيسةُ كانتبري»، في حُضورِ نُخبةٍ راقيةٍ من قادةِ الفكرِ الإسلاميّ والمسيحيّ في العالَمِ بأسرِهِ، وذلكَ بمدينةِ «أبو ظبي» في: ٢ - ٣ من نوفمبر، سنة ٢٠١٦م، بغرضِ التشاورِ في شأنِ قضايا مُهمّةٍ يُعنى بها العالَمُ في ظلِّ ما يمرُّ به من أزماتٍ فكريّةٍ وأخلاقيّةٍ تعيشُها الإنسانيّةُ، فقد تناوَلَ المؤتمرُ عدّةَ محاورَ تدورُ حولَ فكرتهِ التي أفصحَ عنها شعارُهُ، وتُساعدُ في إنجازِ المُهمّةِ التي عُقدَ من أجلِ

تحقيقها: وهي التعددية وحرية الاعتقاد، ومبادرات وتجارب في العيش المشترك والتسامح، ودور الأديان في تعزيز المواطنة والعيش المشترك وترسيخ المبادئ الإنسانية، والعقبات الملقاة في طريق الحوار والتعايش، والحلول الممكنة.

وقد رأينا في مجلس حُكماء المسلمين أن نوثق ما تمخض عنه هذا المؤتمر، وذلك بإصدار كتاب يجمع الكلمات التي تفضل بإلقائها السادة الضيوف، وها نحن أولاء نضع الكتاب بمقالاته بين أيدي القراء، عسى أن يسهم الكتاب في تعزيز قيمة التفاهم والتسامح، وتحقيق ما ننشده جميعاً من الوصول إلى العيش المشترك.

والله من وراء القصد.

عَلِيٌّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي
الْأَمِينِ الْعَامِلُ لِمَجْلِسِ حُكَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ

٢٣ رجب ١٤٣٨ هـ - ٢٠ أبريل ٢٠١٧ م

كَلِمَةُ مُضَيِّلَةِ الْإِمَامِ الْأَكْبَرِ

أ.د/ (حَمْدُ الطَّيِّبِ) ^(١)

الحمدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ . .

وبعد

السَّادَةُ الْحُكَمَاءُ مِنَ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ .

الحضور الكريم :

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

لعلَّ اجتماعَنَا اليومَ هو أَوَّلُ اجتماعٍ مِنْ نوعِهِ ينعقدُ في
الشَّرْقِ العربيِّ، وتحديدًا في دولةِ الإماراتِ، تِلْكُمْ الدَّوْلَةُ
التي صارتَ بفضلِ قيادتها الرَّشيدةِ، وحِكمةِ القائمينَ على
أُمُورِها، أنموذجًا يُقتدى به في الانفتاحِ المُتوازنِ والتطوُّرِ
المَحسوبِ بِدِقَّةٍ، والجمعِ بينَ القديمِ والجديدِ، والأصالةِ
والمعاصرةِ، والتُّراثِ والحداثةِ، في انسجامٍ دقيقٍ، وتناغمٍ

(١) شيخ الأزهر الشريف، رئيس مجلس حكماء المسلمين .

يَقِلُّ نَظِيرُهُ فِي نَمَازِجِ الدُّوَلِ الَّتِي تَحَاوِلُ أَنْ تَأْخُذَ طَرِيقَهَا نَحْوَ الرُّقِيِّ وَالنُّهُوضِ .

وَمَا أَظُنُّ أَنَّ تَارِيخَنَا الْعَرَبِيَّ الْمُعَاصِرَ سَبَقَ أَنْ سَجَلَ لِقَاءَ بَيْنَ حُكَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَحُكَمَاءِ الْمَسِيحِيِّينَ مِنْ أَتْبَاعِ الْكَنِيسَةِ الْإِنْجِيلِيَّةِ، وَفِي ظِلِّ اجْتِمَاعٍ مُحَدَّدِ الْأَهْدَافِ وَالْغَايَاتِ، كاجْتِمَاعِ الْيَوْمِ الَّذِي نَعُوْلُ عَلَيْهِ كَثِيرًا -بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى- فِي اتِّخَاذِ خُطْوَةٍ جَدِيدَةٍ عَلَى طَرِيقِ بِنَاءِ عَالَمٍ مُتَكَامِلٍ وَمُتَفَاهِمٍ، لِلْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ تَخْفِيفِ مَا يُعَانِيهِ النَّاسُ -الْيَوْمَ- مِنْ رُعبٍ وَأَلَمٍ وَدِمَاءٍ وَحُرُوبٍ .

وَأُظَنُّكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ الْحُكَمَاءُ تَتَفَقُّونَ مَعِيَ فِي أَنَّ أَكْثَرَ الْمَآسِي الَّتِي بَاتَتْ تُعَانِي مِنْهَا الْبَشَرِيَّةُ الْيَوْمَ إِنَّمَا مَرَدُّهَا إِلَى شِوَعِ الْفِكْرِ الْمَادِّيِّ، وَفَلَسَفَاتِ الْإِلْحَادِ، وَالسِّيَاسَاتِ الْجَائِرَةِ، الَّتِي أَدَارَتْ ظَهَرَهَا لِلْأَدْيَانِ، وَسَخِرَتْ مِنْهَا وَمِنْ تَعَالِيمِهَا، ثُمَّ أَخْفَقَتْ إِخْفَاقًا كَبِيرًا فِي تَوْفِيرِ بَدَائِلَ أُخْرَى غَيْرِ الدِّينِ، تُحَقِّقُ لِلْإِنْسَانِ قَدْرًا مِنَ السَّعَادَةِ، أَوْ أَمَلًا فِي حَيَاةٍ ذَاتِ مَغْزَى وَهَدَفٍ، أَوْ تَضَمَّنْ لَهُ حُقُوقًا كَالَّتِي تَضُمُّهَا لَهُ

الأديان الإلهية، وفي مُقَدِّمَتِهَا: حَقُّ العَدْلِ والمُساواة، وحَقُّ الحُرِّيَّةِ وحَقُّ الاختلافِ والإحسانِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

وإني لا أرتابُ -أيُّهَا السَيِّدَاتُ والسَّادَةُ!- في أَنَّ البشريَّةَ باتت تتطلَّعُ اليومَ -وبشَغَفٍ شديدٍ- إلى العودةِ لجوهرِ الأديانِ الإلهيةِ، وتعاليمِهَا الإنسانيَّةِ والخُلُقِيَّةِ، بعدَ أن جَرَّبَتِ الكثيرَ والكثيرَ ممَّا كادَ يُشْرِفُ بها على هلاكٍ مُحَقَّقٍ ودَمَارٍ شاملٍ، وبعدَ أن استبدَّت هذه التجاربُ بمصائرِ الشُّعوبِ والفُقَرَاءِ وحقوقِهِم ومُقَدَّرَاتِهِم، ورهنتها بسياسةِ القُوَّةِ والغطرسةِ وفلسفةِ التَّوَشُّعِ، وشهوةِ التَّسَلُّطِ، وجُمُوحِ الفَرْدِيَّةِ والأنانيَّةِ.

وقد اعتقدَ الناسُ في القرنين الماضيين أَنَّ التقدُّمَ العلمي، والتطوُّرَ التَّقْنِيَّ والفلسفي، قد أنهى دورَ الأديانِ في الحياة، وأحالَهَا إلى مُتَحَفِ التاريخ، وَأَنَّ التطوُّرَ في كل هذه الميادين أصبح هو الأجدَرُ بقيادةِ الإنسانيَّةِ، وتولِّي مسؤولية تَهْذِيبِها وترقيةِ شعورِها، وكَبْحِ نوازِعِ الشَّرِّ في أبنائها. غيرَ

أَنَّ الْوَاقِعَ كَانَ يُكَذِّبُ هَذَا الْحُلْمَ الْجَدِيدَ أَوَّلًا بِأَوَّلٍ، وَيُحْبِطُ مَا تَعَلَّقَ بِهِ مِنْ أَوْهَامٍ، وَهَمًّا تَلَوُ الْآخِرِ، وَقَرَأْنَا فِي كُتُبِ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ أَنَّ «القرن التاسع عشر -مثلاً- إذا كان قرنَ المباحثِ الْعِلْمِيَّةِ وفلسفاتِ التطوُّرِ، فقد كان أيضًا قرنَ التوسُّعِ في الاستِعمارِ، وتوظيفِ الْعِلْمِ والالتواءِ به لتحقيقِ مَصَالِحِ الْمُسْتَعْمَرِينَ وأطماعِهِم السِّياسِيَّةِ، حَتَّى زَعَمَ عُلَمَاءُ هَذَا الْقَرْنِ وَمُفَكِّرُوهُ أَنَّ الْأَجْنَاسَ الْبَشَرِيَّةَ، لَا تَرْجِعُ إِلَى أَصْلِ إِنْسَانِيٍّ وَاحِدٍ كَمَا تُقَرَّرُ الْأَدْيَانُ الْمُقَدَّسَةُ، بَلْ إِلَى أَصُولٍ عِدَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، رَاحُوا يَلْتَمِسُونَهَا فِي الْقِرَدَةِ الْعُلْيَا وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ . . ثُمَّ بَنَوْا عَلَى هَذِهِ الْمَزَاعِمِ نَظَرِيَّاتٍ أُخْرَى تُفَرِّقُ بَيْنَ النَّاسِ، وَتُصَنِّفُهُمْ عَلَى أَاسَاسٍ مِنَ اللَّوْنِ وَالْعُنْصُرِ، وَظَهَرَتْ نَظَرِيَّةُ الْجِنْسِ الْآرِي الَّتِي تَوَكَّدُ عَلَى امْتِيَاذِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَجْنَاسِ الْأُخْرَى، وَأَنَّهُ وَحْدَهُ صَاحِبُ الْفَضْلِ فِي كُلِّ الْفُتُوحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ»^(١). إِلَى آخِرِ مَا تَعْلَمُونَهُ -

(١) انظر في ذلك «بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ دَاعِي: السَّمَاءُ وَمُؤَذِّنُ الرَّسُولِ» للعقاد

ص ٤٢٨، «ضمن موسوعة العقاد الإسلامية، المجلد الثالث، دار

الكتاب العربي، بيروت» (بتصرف).

حَضَرَاتِكُمْ- مِنْ تَارِيخِ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ الْمَسْنُوبَةِ إِلَى الْعِلْمِ،
وَالَّتِي كَانَتْ تُصْنَعُ صُنْعًا، ثُمَّ تُطْرَحُ لَتَسْوِغِ سِيَاسَاتِ الْإِسْتِعْمَارِ
وَالْتَسَلُّطِ وَالْإِسْتِقْوَاءِ عَلَى الْآخَرِينَ، ضَارِبَةً عُرْضَ الْحَائِطِ بِمَا
اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الْأَدْيَانُ الْإِلَهِيَّةُ فِي قَضِيَّةِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ خَلْقًا
مُسْتَقِلًّا، وَبِمَا تُقَرِّرُهُ فِي نَصُوصِهَا الْمُقَدَّسَةِ مِنْ أَنَّ قَضِيَّةَ بَدْءِ
الْخَلْقِ سَتَظَلُّ -مَهْمَا تَقَدَّمَ الْعِلْمُ وَتَطَوَّرَ- قَضِيَّةً (مِيتَافِزِيْقِيَّةً) لَا
يُنَالُهَا الْعِلْمُ وَلَا التَّجَرِبَةُ وَلَا الْمَعَامِلُ وَلَا الْمُخْتَبِرَاتُ، وَصَدَقَ
اللَّهُ الْعَظِيمُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا
خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْدًا﴾ ﴿٥١﴾ [الكهف: ٥١].

وَلَمْ يَكُنِ الْقَرْنُ الْعِشْرُونَ بِأَسْعَدَ حَالًا مِنْ سَابِقِهِ، فَقَدْ
وَقَعَتْ فِيهِ حَرْبَانِ عَالَمِيَتَانِ رَاحَ ضَحِيَّتُهُمَا أَكْثَرُ مِنْ سَبْعِينَ
مِلْيُونًا مِنَ الْقَتْلَى، وَلَمْ يَكُنْ لِلدِّينِ بِهِمَا صِلَةٌ وَلَا سَبَبٌ، بَلْ
كَانَتْ نَزَعَاتُ الْعِرْقِ وَالتَّفَوُّقِ الْعُنْصَرِيِّ فِي أُوْرُوبَا مِنْ أَهَمِّ
أَسْبَابِهِمَا. . وَبَعْدَ هَاتَيْنِ الْحَرْبَيْنِ سُرْعَانَ مَا ظَهَرَ سِلَاحُ الرَّدْعِ
النَّوَوِيِّ كَرُعِبٍ عَالَمِيٍّ يَتَهَدَّدُ الْبَشَرِيَّةُ صَبَاحَ مَسَاءٍ^(١).

(١) مِنْ كَلِمَةِ أَلْقَيْتَهَا فِي مُؤْتَمَرِ سَانْتِ إِيْجِيدِيُو فِي رُومَا عَنْ: أَهْمِيَّةِ الْكُنَاسِ =

ثُمَّ أَطْلَّ الْقَرْنُ الْوَاحِدُ وَالْعَشْرُونَ بِسِيَاسَةِ اسْتِعْمَارِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، شَدِيدَةِ الْعُنْفِ وَالْقَسْوَةِ، أَصَابَكُمْ مِنْهَا فِي الْغَرْبِ مَا أَصَابَكُمْ، غَيْرَ أَنَّا -نَحْنُ الْعَرَبَ وَالْمُسْلِمِينَ- نَعِيشُهَا هُنَا فِي الشَّرْقِ وَاقِعًا حَيًّا مَمْزُوجًا -كُلَّ لَحْظَةٍ- بِالثَّرَابِ وَالْدَمِّ وَالْدُمُوعِ وَالْحَرَابِ، وَلَمْ يَعْذِمِ هَذَا الاسْتِعْمَارُ الْجَدِيدُ مِنْ يُفَلِّسِفُ لَهُ النَّظَرِيَّاتِ الَّتِي تُسَوِّغُ سِيَاسَاتِهِ، كَنَظَرِيَّةِ صِرَاعِ الْحَضَارَاتِ وَنَهَايَةِ التَّارِيخِ وَالْفَوْضَى الْخَلَّاقَةِ وَنَظَرِيَّةِ الْمَرْكَزِ وَالْأَطْرَافِ.

وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخْلَصَ إِلَيْهِ بِاخْتِصَارٍ، خَوْفَ الْإِطَالَةِ وَالْإِمْلَالِ، هُوَ أَنَّ التَّقَدُّمَ الْعِلْمِيَّ الْمُذْهَلَ -وَلِسُوءَ الْحَظِّ- لَمْ يُوَاقِبْهُ تَقَدُّمٌ مُوَازٍ فِي الْأَخْلَاقِ، وَأَنَّ التَّطَوُّرَ التَّقْنِيَّ -وَبِخَاصَّةٍ فِي مَجَالِ صِنَاعَةِ الْأَسْلِحَةِ الْفَتَّاكِ- جَاءَ خَالِي الْوَفَاضِ مِنْ كُلِّ الْقِيَمِ الَّتِي تَضْبِطُ خُطَوَاتِهِ فِي الْاِتِّجَاهِ الْإِنْسَانِيِّ الصَّحِيحِ، وَلَوْحَظَ أَنَّ الْحُرُوبَ يَزْدَادُ سَعِيرُهَا وَتَشْتَدُّ وَطَائُهَا كُلَّمَا تَرَقَّى الْعِلْمُ فِي سُلَمِ التَّطَوُّرِ، حَتَّى صَارَ التَّقَدُّمُ الْعِلْمِيُّ وَانْدِلَاعُ الْحُرُوبِ كَأَنَّهُمَا

حَلَقَتَانِ مُتْرَابَتَانِ، يَدْعُمُ كُلُّ مَنِهْمَا الْآخَرَ وَيُقَوِّيه . . وَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّقْدِمِ وَالتَّطَوُّرِ الَّذِي حَدَثَ فِي مَيَادِينِ الْفَلَسَفَةِ وَالْأَدَبِ وَالْاجْتِمَاعِ وَالْفُنُونِ، فَقَدْ تَطَوَّرَتْ هِيَ الْآخَرَى بَعِيدًا عَنِ فِلْسَفَةِ الدِّينِ، وَفِي غَيْبَةٍ مِنْ قَوَاعِدِ الْأَخْلَاقِ، وَفِي اسْتِخْفَافٍ سَاخِرٍ مِنَ الْأَنْظَارِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ، وَمِنِ الْمِيتَافِزِيْقَا وَفِي تَقَاطُعٍ مُتَعَمِّدٍ مَعَ الثَّرَاثِ الْإِنْسَانِيِّ وَكُنُوزِهِ الدِّينِيَّةِ وَالْفِلْسَفِيَّةِ، فَجَاءَتْ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتُ الْحَدِيثَةُ وَإِنَّمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهَا .

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْأَعَزَّاءُ!

مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ! وَمَا أَشْبَهَ مُؤْتَمَرَنَا هَذَا بِمُؤْتَمَرٍ عَالَمِيٍّ لِلْأَدْيَانِ عُقِدَ فِي لَنْدَنْ عَامَ ١٩٣٦م، وَأَسْهَمَ فِيهِ شَيْخُ الْأَزْهَرِ حِينَذَاكَ «الشَّيْخُ/ مُحَمَّدٌ مُصْطَفَى الْمِرَاغِي» بِرِسَالَةٍ بَعَثَ بِهَا إِلَى الْمُؤْتَمَرِ بَعْثًا: «الْإِخَاءُ الْإِنْسَانِيُّ وَالزَّمَالَةُ الْعَالَمِيَّةُ»^(١)، وَقَدْ هَالَنِي هَذَا التَّشَابُهُ -أَوَّلًا- بَيْنَ الْقَلَقِ الَّذِي

(١) رِسَالَةُ الْإِخَاءِ الْإِنْسَانِيِّ لِلْأَسْتَاذِ الْإِمَامِ الْمِرَاغِي شَيْخِ الْأَزْهَرِ، الَّتِي

بَعَثَ بِهَا إِلَى الْمُؤْتَمَرِ الْعَالَمِيِّ لِلْأَدْيَانِ فِي لَنْدَنْ، مَجْلَةُ الْأَزْهَرِ ٧،

١٩٣٦م، ص ٣٠١-٣١١.

كانت تعيشه أوروبا في ذلكم الوقت، والقلق الذي يعيشه عالمنا الآن، وثانياً: هذا التشابه في عناوين الرسائل بين الأمس البعيد واليوم الحاضر، فرسالة الشيخ كانت تبحث عن الإخاء الإنساني والسلام العالمي، وهو المضمون نفسه الذي تبحث عنه رسالتنا اليوم، وهي تتطلع إلى عالم متكامل متفاهم . . وأكبر الظن عندي أن ما انتهت إليه رسالة الأزهر في مؤتمر لندن سوف يُضيء لنا الطريق فيما سينتهي إليه لقاء «أبو ظبي» اليوم.

ويُحسب لهذه الرسالة أنها في الوقت الذي كان فيه الناس في الغرب يتشاءمون إذا بدأ صباحهم برؤية رجل الدين، أعلنت هذه الرسالة في قلب أوروبا كلها أن لا مخرج للعالم مما هو فيه إلا بالتدين والاعتصام بالدين . . وأن علة السقوط الحضاري في عصر ازدهار العلم ليس هو الدين كما استقر في أذهان الناس، وإنما هو الإلحاد والاتجاهات الفلسفية المادية، وهذا النظر النقدي لم يكن أمراً يجرؤ على التفوه به كثيرون من قادة الفكر والإصلاح، بل كان من أصعب الصعاب

-في ذلكم الوقت- توجيهُ نقدٍ عميقٍ لأخلاقيّةِ العلمِ في عصرِ ازدهاره وِقَمّةِ توهّجه، كما لم يكن من السَّهلِ أن تُنتَقَدَ الفَلَسَفَاتُ الوُضْعِيَّةُ، ويُحذَرَ من افتتانِ العُقُولِ بها، ومن سيطرتها على النظريّاتِ السياسيّةِ والاجتماعيّةِ، بل على التفكيرِ الديني نفسه؛ حتى اضْطُرَّ بعضُ من رجالِ الدِّينِ المسيحيِّ، والعُلَمَاءِ المسلمين، إلى اللُّجُوءِ لمحاولاتِ التَّوفيقِ أو التَّلْفِيقِ بين النُّصوصِ الدِّينيّةِ المُقَدَّسَةِ، وبين ما يُعارِضُها من أنظارِ العُلَمَاءِ والفلاسِفَةِ، حتّى لو كانت هذه الأنظارُ مُجرَّدَ احتمالاتٍ لم تَصِلْ -بَعْدُ- لمرتبَةِ القانونِ العلميِّ وتتمتّع بما يتمتّع به من يقينٍ وثبوتٍ. وكثيراً ما جاءت هذه الفَلَسَفَةُ التَّلْفِيقِيَّةُ على حسابِ النُّصوصِ المُقَدَّسَةِ ودَلالَتِها الواضحة، وبدا لكثيرين آنذاك أنَّ الدِّينَ يَلْفِظُ أنفاسَه الأخيرةَ أو يكادُ.

ولم يتردّدِ الشَّيْخُ في أن يُعلنَ في رسالَتِه أنَّه لا دَوَاءَ لهذا السُّقُوطِ إلَّا في «التَّدِينِ والشُّعُورِ الدِّينيِّ»، الذي يَصِفُه بأنَّه عَريِزَةٌ ثابتَةٌ في فِطْرَةِ الإنسانِ، وأنَّه أقوى تأثيراً في قِيَادَةِ

الإنسانية نَحْوَ السَّلَامِ وَالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ، مِنْ كُلِّ نَوَازِعِ
 الْإِلْحَادِ الدَّافِعَةِ إِلَى فَسَادِ الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ . . . وَيَتَوَقَّعُ
 الشَّيْخُ اعْتِرَاضًا مِنَ الْمَلْحِدِينَ وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ مِنَ
 السَّاحِرِينَ بِالْأَدْيَانِ مُؤَدَّاهُ: أَنَّ التَّارِيخَ حَافِلٌ بِمَآسٍ وَكَوَارِثَ
 إِنْسَانِيَّةٍ «كَانَ فِيهِ الشُّعُورُ الدِّينِيُّ قُوَّةً طَائِشَةً دَفَعَتْ إِلَى عُنْفٍ،
 وَتَدْمِيرٍ مُرَوِّعٍ»، وَهَذَا الْوَاقِعُ الْمَحْزَنُ صَحِيحٌ -فِيمَا يَرَى
 الشَّيْخُ- لَكِنَّهُ يَبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الذِّكْرِيَّاتِ الْمُرَوِّعَةَ لَيْسَ سَبَبُهَا
 الدِّينُ، فَلَيْسَ فِي طَبِيعَةِ أَيِّ دِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ الْإِلَهِيَّةِ مَا يُوَدِّي
 إِلَى آيَةٍ مَآسَاةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَآسِي الَّتِي تُحْسَبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ السَّبَبَ
 الْحَقِيقِيَّ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْمَآسِي هُوَ اسْتِغْلَالُ الشُّعُورِ الدِّينِيِّ،
 وَتَوْظِيفُهُ فِي وَاقِعٍ مَنْحَرِفٍ، وَتَحْقِيقُ أَغْرَاضٍ يَرْفُضُهَا الدِّينُ
 نَفْسُهُ، بَلْ يُنْكِرُهَا أَشَدَّ الْإِنْكَارِ . . .

مِنْ هُنَا -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ!- يَبْرُزُ الدَّورُ الْخَطِيرُ
 الْمُلقَى عَلَى عَاتِقِنَا نَحْنُ -عُلَمَاءَ الدِّينِ وَرِجَالِهِ- قَبْلَ غَيْرِنَا،
 لَتَدَارِكُ هَذِهِ الْأَزْمَةَ الَّتِي يَخْتَنِقُ بِهَا الْعَالَمُ الْيَوْمَ، وَطَرِيقُ
 ذَلِكَ: أَنَّ الْأُخُوَّةَ الْعَالَمِيَّةَ الَّتِي رَاوَدَتْ أَحْلَامَ الْأَزْهَرِ فِي

ثلاثينيات القرن الماضي، ولا زالت تُرأوده حتى هذه اللحظة، تبدأ من الأخوة العالمية بين رجال الدين أولاً، أو كما يقول اللاهوتي الكبير/ هانز كينج: «لا سلام للعالم بدون سلام ديني»^(١)، وعليه فإن علماء الأديان -اليوم- إذا كانوا يتنون القيام بدورهم في التبشير بالسلام العالمي، وإحلال التفاهم محل الصراع، وتحقيق آمال الناس في عالم متكامل متفاهم - فعليهم أن يحققوا السلام والتفاهم بينهم أولاً، حتى يمكنهم دعوة الناس إليه.. وهذا ما حرص الأزهر أن يتحرك في إطاره، حين بدأ أولى الخطوات العملية على هذا الطريق الطويل بزيارة رسمية لكنيستكم الموقرة: كنيسة كنتبري، وسعدنا كثيراً -غبطة الأورش يشوب!- باستضافتكم الكريمة لوفد الأزهر في قصر لامبث العامر خلال الفترة من ٩-١٢ يونيو ٢٠١٥م. ثم جاءت

(١) في كتابه: مشروع أخلاقي عالمي، دور الديانات في السلام العالمي، الترجمة العربية ص ١٤، المكتبة البولسية، بيروت ١٩٩٨م.

خُطوةُ الأزهرِ الثانيةُ باتِّجاهِ حاضرةِ الفاتيكانِ وزيارةِ البابا فرنسيس، في ٢٣ مايو ٢٠١٦م، ثم كانت الرحلةُ الأزهريةُ الثالثةُ باتِّجاهِ مجلسِ الكنائسِ العالميِّ بجنيف، خلالَ الفترةِ من ٣٠ سبتمبر إلى ٢ أكتوبر ٢٠١٦م، وأتوقَّعُ -بمشيئةِ اللهِ تعالى- أن تُسهِمَ هذه الزياراتُ كثيرًا في تخفيفِ آلامِ الفقراءِ والبائسينَ والمحترقينَ بنيرانِ الحروبِ العبيَّةِ، والسياساتِ المنحرفةِ عن جادةِ الدينِ والخُلُقِ والضَّميرِ.

وها نحن نجتمعُ اليومَ في مدينةِ أبو ظبي اجتماعَ الحكمةِ والأخوةِ والمودةِ، نستلهمُ العونَ مِنَ اللهِ تعالى، ونتأسَّى بالأنبياءِ والمرسلينَ في اعتمادِهِم على اللهِ، وتَحْمِلِهِم ما لا تَحْتَمِلُهُ الجبالُ الرَّاسياتُ مِنْ أَجْلِ إنقاذِ المجتمعِ الإنسانيِّ مِنَ الضَّلالِ، ووَضْعِهِ على طريقِ السَّعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

أَيُّهَا الضُّيُوفُ الْأَعَزَّاءُ!

إذا كان لي مِنْ أَمَلٍ في لقائنا هذا فهو الرَّجاءُ في أن ننسى الماضيَ وما يبعثُهُ هذا الماضي مِنْ كراهيةٍ وضغائنَ، وأن ننظرَ إلى الأمامِ، وأن نتيقَّنَ أنَّنا لسنا مسؤولينَ أمامَ اللهِ تعالى عمَّا مضى، بل -وبكُلِّ تأكيدٍ- سوفَ يسألنا عن زَمَننا هذا

الذي نعيشُ فيه وعن واجِبِنَا تُجَاهَهُ، وعن أَمَانَتِنَا التي أوْتَمَنَّا عليها نحوَ خَلْقِ اللَّهِ وَعِيَالِهِ. وكُلِّي يَقيْنُ في أَنَّ كُلًّا مِنَّا يَحْمِلُ بَيْنَ جَنَابَتِهِ عَزِيمَةً صُلْبَةً وَيَقِينًا ثَابِتًا، وأَمَلًا لا مَحْدودًا في أَنَّ جُهودَنَا المُشترَكَةَ سوفَ تُؤتي ثَمَارَهَا يَانِعَةً في المُستقبلِ القريبِ بإذنِ اللَّهِ في التَّصَدِّي لِلتَّطَرُّفِ الذي يَبْعَثُ الإرهابَ وَيُطِيلُ أَمَدَهُ.

وَأَخْتِمُ كَلِمَتِي إِلَيْكُمْ بِأَنَّ الإِسْلَامَ الذي أَعْتَقَهُ دِينًا -أَيُّهَا السَّادَةُ- يُرَحِّبُ أَوْسَعَ التَّرحيبِ بِأَيِّ جُهدٍ يُبذلُ مِن أجلِ إيساعِدِ إنسانٍ، أو رَحمةٍ بِحيوانٍ، أو حَمايةٍ لنباتٍ أو جمادٍ. شُكْرًا لِحَسَنِ اسْتِمَاعِكُمْ.

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ؛

تَحْرِيرًا فِي:

٢٨ من محرم سنة ١٤٣٨ هـ

الموافق:

٣٠ من أكتوبر سنة ٢٠١٦ م

لَحْمَلُ الطَّيِّبِ

شَيْخُ الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ

رئيس مجلس حكماء المسلمين

الجلسة الأولى

التعددية الدينية وحرية الاعتقاد

الحوار واجب ديني وضرورة إنسانية

عبد الله بن بيّه^(١)

الحوار واجب ديني، وضرورة إنسانية، وليس أمراً موسميّاً، الحوار من أصل الدين، ومن مقتضيات العلاقات البشرية، ولذا أمر به الباري عزّ وجلّ؛ فقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٦] .

قال التِّلْسانِي: المعنى: «والذين ظَلَمُوا مِنْهُمْ كَذَلِكَ» . وهذا التفسيرُ تُرْكِيهِ السَّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ؛ فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحَاوِرُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْهُمْ؟

الحوار يحقق التعارف والتَّعْرِيفَ، وَيَشْهَدُ للاستعدادِ الحاصلِ لدى جميع الأطرافِ لتقديمِ وجهاتِ النَّظَرِ النَّافِعَةِ والصَّالِحَةِ لحلِّ مشاكلِ الكوكبِ الأرضيِّ الذي نعيشُ عليه .

(١) عضو مجلس حكماء المسلمين، رئيس منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة .

إنَّ أهمَّ قيمةٍ يُمكنُ أن تكونَ مفتاحًا لحلِّ مشاكلِ العالمِ هي احترامُ الاختلافِ، بل حبُّ الاختلافِ، بحيثُ يُنظرُ إليه كإثراءٍ، كجمالٍ، كأساسٍ لتكوينِ المُركَّبِ الإنسانيِّ.

إنَّه بحُسنِ إدارتنا للاختلافِ، وترقيةِ الفضيلةِ - قانونِ الفضيلةِ - إلى جانبِ قانونِ حقوقِ الإنسانِ يُمكنُ أن نضعَ أساسًا لتفعيلِ القيمِ المُشتركةِ؛ ليكونَ الاختلافُ انسجامًا، والعداوةُ محبةً، طبقًا للآية: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَتْ: الآية ٣٤].

إنَّه قانونُ أخلاقي يثبتُه القرآنُ: الإحسانُ يُورثُ الإحسانَ، والحبُّ يُعطي الحبَّ.

فهل لنا أن نأملُ في تنميةِ جوانبِ الخيرِ والقيمِ الإنسانيةِ الخيرةِ المُشتركةِ، إنَّ سلوكنا الفاضلَ، وتسامحنا، وسخاءنا، وصدقنا، ووفاءنا، وأمانتنا من شأنه أن يُقنعَ الآخرَ، وهو الإنسانُ الذي حَمَلَ نفسَ الإعجابِ بتلكِ القيمِ أن يعاملنا بنفسِ المعاملةِ النَّبيلةِ، فالخيرُ يدعو للخيرِ، والسَّخاءُ يستدعي السَّخاءَ.

إِنْ إقْنَعَنَا لِلْغَيْرِ بِسُلُوكِ سَبِيلِ الْخَيْرِ أَهْمُ قَضِيَّةٍ إِنْسَانِيَّةٍ .
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي جَعَلَ التَّعَدُّدَ وَالتَّنَوُّعَ آيَةً مِنْ
آيَاتِهِ وَبِرَهَانًا عَلَى حِكْمَتِهِ وَجَمِيلِ آلَائِهِ .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ السِّنِّكُمْ
وَالْوَنُكْمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٢] .

سَرَتْ رُوحُ أَسْمَائِهِ الْجَلِيلَةِ فِي لَوْحَةٍ كَوَّنَهُ الْجَمِيلَةَ ، فَهُوَ
سَبْحَانَهُ الْبَدِيعُ ، وَهُوَ الْمُصَوِّرُ ، وَهُوَ وَاحِدٌ ، وَأَسْمَاؤُهُ كَثِيرَةٌ .
وَعَلَّمَنَا أَنَّ هَذَا التَّنَوُّعَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُبَرَّرًا لِلتَّدَابِيرِ
وَالْتَّقَاطِيعِ أَوْ سَبَبًا فِي نَفْيِ الْمُشْتَرَكَاتِ وَالْجَوَامِعِ ، بَلْ يَنْبَغِي
أَنْ يَكُونَ أَسَاسًا فِي الْإِنْسَجَامِ ، وَاسْتِيعَابِ الْإِخْتِلَافِ ،
وَتَحْيِيدِ أَسْبَابِ الصَّرَاعِ ، لِيَتَحَوَّلَ الْإِخْتِلَافُ إِلَى ثَرَاءٍ ، وَلَيْسَ
إِلَى عَدَاءٍ .

جاء في آخرِ خِطَابِ أَلْفَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَحْضَرِ الْآلَافِ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ
وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى
عَرَبِيٍّ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا

يَتَّقُوا اللَّهَ ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، قالوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .
 قَالَ: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»،
 قالوا: شَهْرٌ حَرَامٌ. قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، قالوا: يَوْمٌ
 حَرَامٌ. قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟»، قالوا: بَلَدٌ حَرَامٌ. قَالَ: «فَإِنَّ
 دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - قَالَ: وَأَحْسَبُهُ قَالَ: وَأَعْرَاضَكُمْ - عَلَيْكُمْ
 حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا
 هَلْ بَلَّغْتُ؟»، قالوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . قَالَ: «فَلْيُبَلِّغِ
 الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»^(١).

وقال أيضاً في خطبة الوداع: «وَيَحْكُمُ، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي
 كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(٢).

فالتعدُّدُ هو سُنَّةٌ كَوْنِيَّةٌ، وكذلك هو فِطْرَةٌ بَشَرِيَّةٌ؛ فالتَّأْسُّسُ مِنْ
 فِطْرَتِهِمْ أَنْ تَخْتَلِفَ رُؤَاؤُهُمْ وَتَصَوُّرَاتُهُمْ وَمُعْتَقَدَاتُهُمْ وَمَصَالِحُهُمْ .

(١) أخرجه ابن المبارك في «المسند» (٢٣٩) وأحمد في «المسند»
 (٢٣٤٨٩) من طريق أبي نضرة قال: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَسْطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ . . . فذكرها .

(٢) أخرجه مسلم (٦٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٨٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ .

فالتَّعَدُّدُ ناموسٌ إلهيٌّ، سَرَى في الأكوانِ والرُّؤى والشَّرائعِ، ولم يكن الإسلامُ في يومٍ من الأيامِ إِلَّا مُعْتَرِفًا بهذا المبدأِ، ومُعلناً بضرورة احترامه .

فلم يُنْكَرْ أو يُتَنَكَّرَ الإسلامُ لإسهامِ الأديانِ والحضاراتِ في تشييدِ العمارةِ الأخلاقيةِ للبشريّةِ، فرسولُ الله ﷺ يؤكِّد أنه ليسَ إِلَّا لِنَبِيٍّ مُتَمِّمَةٍ لهذا البناءِ العظيمِ .

وبالمناسبة: فإنَّا نفَسِّرُ على ضوئِ هذا الحديثِ الصَّحيحِ ما جاء في «إنجيل متى» (الإصحاح: ٢١) عن سيِّدنا المسيح عيسى بن مريم عليه السَّلام: «الحجرُ الذي رفضه البناءون هو قد صارَ رأسَ الزاوية» .

فهو ذلك الحجرُ، وهو تلك اللَّبَنَةُ .

والنَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَا أَنَّ الأنبياءَ وإنِ اخْتَلَفَتْ شرائعُهم، فإنها مُتَّفَقَةٌ في أصلها، مُنْسَجِمَةٌ في رُوحها، وَضَرَبَ لذلك مثلاً: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،

وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»^(١).

يقول البغوي شارحاً^(٢): «يُريد: أن أصلَ دينِ الأنبياءِ واحدٌ، وإن كانت شرائعهم مُختلفةً، كما أن أولاد العلاتِ أبوهم واحد، وإن كانت أمهاتهم شتَّى».

وهكذا: فإنَّ اعترافَ الإسلامِ بالتَّعدديةِ الدِّينيةِ ليس مُجرَّدَ اعترافٍ، بل هو احترامٌ وتقديرٌ.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَـدَّتْ صَومِعُ وَيَعُ وَصَلَوَتُ وَمَسْجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحَج: ٤٠].

فقد جعلَ الله عزَّ وجلَّ البيعَ والكنائسَ مُقدَّسةً، لا يُمكنُ أن تَمُتدَّ إليها يدُ الاعتداءِ، والتاريخُ يُثبِتُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ والخلفاءَ من بَعْدِهِ لم يهدموا كنيسةً، ولا بيعةً، ولا بيتَ نارٍ، وتلك هي الدِّياناتُ التي كانت موجودةً في المجالِ الحضاريِّ للإسلام يومئذٍ.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «شرح السنة»: ١٣ / ٢٠٠.

ولذا كان العلماء الربّانيون المُجدّدون على منهج النّبوة عندما تمتدّد يد العَبَث والجَهْل إلى أماكن عبادة غير المسلمين يَقِفُون في وجه ذلك الاعتداء، فهذا الإمام اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ يعترض على والي مصرَ لَمَّا هَدَمَ كَنَائِسَهَا، وكتبَ إلى الخليفة يُطَالِبُهُ بعزله؛ لأنّه خالف وصيّة الرّسول ﷺ بالاستيلاء خيراً بِقَبْطِ مِصرَ، وقد عزَلَ الخليفةُ الوالي، وأمرَ بإعادة بناء الكنائس.

واللَّيْثُ وعبدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيعةَ -رحمهما الله- يَشْهَدَانِ أَنَّ غَالِبَ كَنَائِسِ مِصرَ لم تُبنَ إِلَّا في الإسلام^(١).

وقد دَخَلَ الصّحابةُ مِصرَ، وأقروا أهلها على شعائرهم. ولقد كانت صحيفةُ المدينة بياناً لا يرقى إليه شكٌّ، وبرهاناً لا تعتريه شبهةٌ على موقفِ الإسلامِ من التّعُدِّيّةِ الدِّينِيّةِ، فعندما أسَّسَ المسلمون أوّلَ تَجْمَعٍ دينيٍّ خارجاً عن سيطرة المشركين وعن اضطهادهم؛ فكانت بذلك «صحيفةُ المدينة» أوّلَ ميثاقٍ إنسانيٍّ للمُواطنَةِ.

(١) انظر: «ولاة مصر» للكندي: ١٠٠.

١ - السياق التاريخي للتعددية في الإسلام:

عاش اليهود في المدينة -لظروف تاريخية- إلى جانب أبناء قبيلة الأوس والخزرج، وهم يرجعون إلى فرع غسان القحطانية اليمنية الأصل، الشامية المهاجر والموطن.

وهذا يُثبت أن مجتمع المسلمين الأول كان مجتمعاً مختلطاً كما تدلُّ عليه الروايات التاريخية، فهذا قيس بن شماس -وهو صحابي- تموت أمه وهي نصرانية فيأذن له عليه الصلاة والسلام في حضور جنازتها راكباً سائراً أمامها، كما في رواية الحلال^(١).

وهذا أبو وائل تموت أمه النصرانية؛ فيسأل عمر بن الخطاب، فيقول له نفس الشيء^(٢).

وهذا عبد الله بن ربيعة تموت أمه وهي نصرانية فيسأل عبد الله بن عمر فيأمره بأن يحسن عليها ويكفنها ولا يقف

(١) في «أحكام أهل الملل»: ١/ ٢١٩.

(٢) م. ن: ١/ ٢١٨.

على القبر، لِيُفْسِحَ لِأَهْلِ دِينِهَا، فقد كان النصارى يَعِجُّونَ حولها^(١).

وسأل رجلٌ ابنَ عباسٍ وقد مات أبوه نصرانيًّا فأمره أن يَشْهَدَهُ وَيَدْفِنَهُ^(٢).

وهذه أمُّ المؤمنين صفية رضي الله عنها تُوصي لِأخيها اليهوديِّ ببعض مالِها^(٣).

وقال القاضي وأبو الخطّاب: حُكْمٌ مَنْ تَنَصَّرَ مِنْ تَنُوحَ وبهراء، أو من تهوّد من كِنَانَةَ وَحِمَيْرَ، أو تمجّس من تميم، حُكْمٌ بني تغلب سواءً، وهذا موافقٌ لمذهب الشّافعي^(٤).

وهذا يدلُّ على وجود كلِّ الدِّينات في الجزيرة العربية وبين القبائل العربية، هذه الروايات تدلُّ على أنَّ المجتمع الإسلامي الأوّل كان متعدّدًا بالفطرة.

(١) «أحكام أهل الملل»: ٢١٩/١.

(٢) م.ن: ٢٢٠/١.

(٣) م.ن: ٢٢٨/١.

(٤) انظر: «المغني» لابن قدامة: ٢٧٦/٩.

هذا هو الواقع الذي وجده النبي ﷺ في المدينة، بعد ثلاث عشرة سنة من الدعوة في مكة، وبعد طول تحمُّلٍ للأذى والعذاب. وهو واقعٌ يختلف عن واقع مكة، فمكة قريةٌ تسكنها قبيلةٌ واحدة هي قبيلة قريش ذات الأصل الواحد وإن تعددت بطونُها، والتي تدين كلها بدين الوثنية، بينما كانت يثرب تجمُّعًا سكانيًا من قبائلٍ مختلفة الأصول والأنساب والديانة التي تنوعت بين الوثنية واليهودية، فكان من مقتضيات الواقع ومُتطلَّباته أن تلتف هذه المكوّنات المتعدّدة حول ميثاقٍ ينظّم علاقاتها بعد طول قتالٍ وصراعٍ بينها قبل الإسلام؛ فوضع النبي ﷺ صحيفة المدينة لتجنّب الاحتكاك والتصادم بين المكوّنات القديمة والوافدين الجدد الذين انضمُّوا إلى النسيج البشريّ المكوّن ليثرب، وهو كتابٌ يصرِّح بالتعددية الاختيارية، ويبني العقد على أساسها متجاوزًا ما يمكن أن تسببه من عوائق بتقديم مصالح التضامن والتعاون في شكلٍ حقوقٍ وواجبات.

إنَّ كلَّ بنود صحيفة المدينة تُثبت فرادتها تاريخيًا، ويزيد من بروز هذه الفرادة أربعة أمور:

- أن الرسول ﷺ كان مضطهدًا في مكة، مسلوب الحرية في قول: «ربي الله»، فلما هاجر إلى المدينة كان من أوّل ما أقرّه حُرّيّة المعتقَد للنّاس تطبيقًا لمقتضيات كُليّات الشّرع.

- أنها تنظّم شؤون مجتمع متعدّد.

- أنها ليست مسبقة بقتال ديني ولا ثقافي، وإن كانت العداوات والحروب القبليّة بين الأوس والخزرج ما زالت حيّة، لولا أن الدّين الجديد محاها بسرعة.

- أنها لا تتحدّث عن أقلية ولا أكثرية، بل إنّ مضامينها وبنودها التي تأسّست على العدل جعلت مفهوم الأكثرية والأقلية لا معنى ولا أثر له.

هذا فوق أنها تكوّنت من شقّين: شقٌّ يتعلّق بالعلاقة بين الأنصار - السّكان الأصليين - وبين المهاجرين، وشقٌّ يتعلّق بتنظيم العلاقة بين المسلمين وباقي المكوّنات الاجتماعية الأخرى التي تختلف عنها عقديًا، مما يعني واقعيّة الإسلام في التعامل مع الواقع ومكوّناته، ورعيّه لهذه المكوّنات واعتباره لها.

٢- التعددية في صحيفة المدينة:

إنَّ صحيفةَ المدينة^(١) تمثِّل مواطنةً تعاقديةً يحكمها ميثاقٌ أو دستورٌ، وهذا ما يثبتُه البند (٢٥) من الصَّحيفة «يهودُ بني عوف أُمَّةٌ مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم».

والبند (٣٧) «إنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنَّ بينهم النِّصرَ على مَنْ حاربَ أهلَ هذه الصَّحيفة».

فهي تؤسِّس لمجتمعٍ متعدِّدٍ الأعراقِ والدياناتِ، متضامِنٍ، يتمتعُ أفرادُه بنفسِ الحقوقِ، ويتحمَّلون نفسَ الواجباتِ، وهي واجباتٌ محدَّدةٌ بدستورٍ عادلٍ، يؤكِّد على أنَّهم أُمَّةٌ واحدةٌ، وهذا البُعدُ الذي يؤكِّد وحدةَ الأُمَّةِ في نطاقِ التعدُّديةِ الدِّينيةِ وحريةِ التَّدينِ لم يحظَ بعدُ ببحثٍ كبيرٍ مع أهميته؛ لأنَّه الأصلُّ، ولأنَّه يتعلَّقُ بمجتمعٍ متعدِّدٍ الدياناتِ بطبيعته؛ أي: أنَّ كلَّ فئةٍ منه اختارت ديانةً طوعيةً.

إنَّه الوضعُ الملائمُ لحالةِ الأقليَّاتِ في الدِّيار الإسلاميَّةِ

(١) انظر بنود هذه الصحيفة في «السيرة النبوية» لابن هشام: ١/ ٥٠١-٥٠٤.

اليوم، فالعقد الذي ينطبق عليهم هو عقدٌ جديدٌ بالنوع قديمٌ بالجنس، تُحترم فيه الخصوصية، وتتمتع فيه الأقلية بحرية ممارسة دينها، ويتضامنون في إدارة شئون دُنياهم طبقاً لواجبات وحقوقٍ محدّدة بالدستور العقلائي الذي يكفلُ التوازنَ والتعايشَ السَّعيدَ وسيادة حُكم القانونِ وتسوية الإشكالات السياسية بالعدل والإنصاف.

٣- روحُ صحيفة المدينة في التجربة التاريخية لعلاقة

المُسلمين بالمُخالفِ ديانةً في المُجتمع الإسلامي :

إننا لا نزعمُ أنَّ تاريخنا الإسلامي ناصعٌ في كلِّ فتراته، فنحن نفخرُ بصفحات مجده، وفي نفس الوقت نعتزُّ بأنه تاريخٌ بشريٌّ تسري عليه السُّننُ الكونية، فيه فتراتٌ إشراقٍ وفتراتٌ ظلمٍ، فتراتٌ قوةً وفتراتٌ ضعفٍ، مراحلُ ريادةٍ ومراحلُ انتكاسٍ وتراجعٍ. لكننا في الوقت نفسه نزعمُ أنه لم يعرف التاريخُ ديناً ولا أمةً قبلت بالتعددية الدينية واحتوتها كالدين الإسلامي والأمة المنتسبة إليه، ولذلك كانت روحُ صحيفة المدينة وكُلِّيَّاتها ومقاصدها حاضرةً في فعلِ الصحابة

رضوان الله عليهم وهم يتصلون بالأمم التي كانت في زمنهم بحسب ما اقتضته ظروف الواقع، سواء كان هذا الواقع واقع سلم أو واقع حرب مفروضة استتبعته إجراءات شرعية، كنظام الجزية -مثلاً- الذي كان نوعاً من الإجراءات المالية التي لا تجري على المسلمين -الذين كانت عليهم الزكاة مفروضة- واختص بها غير المسلمين في ظل الإسلام.

وعندما نتحدث عن الحرية الدينية فلعلنا نُشير إلى مسألة دور العبادة إبقاءً وإنشاءً طبقاً للحاجات، فالنبي ﷺ وخلفاؤه لم يهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار، وهذا الجانب مكفول، وإن فرّق العلماء بين المصر الجديد والمصر القديم، وما فُتح عنوةً وما فُتح صلحاً -دون مناقشته الآن- نكتفي بالإشارة إلى أن العقد الجديد أقوى من الصلح، ولهذا ينطبق عليه النص التالي لإمام الحرمين في «نهاية المطلب»: «ولو وقع الشرط على أن تكون رقاب الأبنية في البلدة وعَرَصاتها لهم، فلا يُمنعون من ضرب النواقيس، وإظهار الخمر والخنازير في مثل هذه البلدة؛ فإنها بحكمهم، ولو كان يخالطهم المسلمون لم يكن لهم أن

يعترضوا عليهم، والبلدة في الجملة والتفصيل بمثابة دار الذمّي في بلاد الإسلام، ولا يخفى أنّه لا يجبُ البحث - بل لا يجوزُ - عما يتعاطون في دُورهم، قال صاحبُ «التقريب»: لا يكلّفون الغيارَ في البلدة التي وصفناها، والأمرُ على ما قال، وقد فُتحت قُرى الشّام صلحاً على أن تكونَ لأهلها، فكانوا يُظهرون النواقيسَ في زمنٍ معاويةَ، وجرت له قصة مشهورة^(١).

وقد رفض عمرُ رضي الله عنه عند استلام بيت المقدس أن يُصلي في كنيسة القيامة؛ مخافة أن يستند الخلفاء من بعده على فعله فيسلبوها من النصارى.

والإمام الليث بن سعد يعترضُ على والي مصر لما هدم كنائسها، وكتبَ إلى الخليفة يُطالبه بعزله؛ لأنّه خالف وصية الرسول صلّى الله عليه وآله بالاستيلاء خيراً بقبط مصر، وقد عزل الخليفة الوالي، وأمر بإعادة بناء الكنائس. والليث رحمه الله يشهد أنّ غالبَ كنائس مصر لم تُبنَ إلّا في الإسلام، وقد دخل الصّحابةُ مصرَ وأقروا أهلها على شعائرهم.

(١) «نهاية المطلب»: ٥١/١٨.

ومع ذلك؛ فإنَّ تنظيمَ دورِ العبادةِ يمكنُ أن يشملَ كلَّ الدياناتِ، للوقوفِ على الحاجاتِ الحقيقيةِ دونِ ضيقٍ ولا حرجٍ، ولذلك اعتبرَ بعضُ علماءِ المالكيةِ أنَّ تعدُّدَ المساجدِ غيرُ مرغوبٍ فيه، فيُهَدَمَ المسجدُ الجديدُ باعتباره مَسْجِدًا ضِرارًا إذا لم تدعُ إليه الحاجةُ. وقد جرى عملُ علماءِ الأندلسِ بجوازِ إحداثِ الكَنائسِ.

صحيحٌ أنَّ التاريخَ شهدَ مآسٍ ونكباتٍ تعرَّضت لها الأقلياتُ، نتيجةَ احتكاكاتٍ تاريخيةٍ، جعلت بعضَ العلماءِ يُصدرون أحكامًا قاسيةً على بعضِ الأقلياتِ، لكنَّها تبقى استثناءً بالنسبةِ للمُسلمين لا يخرمُ القاعدةَ العامةَ، وحتى هذه الاستثناءاتُ وجدت من علماءِ المسلمين في تلكِ العصورِ قوةً وصلابةً واستماتةً في حمايةِ الأقلياتِ من الاعتداءاتِ، كالإمامِ الأوزاعي في القرنِ الثاني الذي حمى المسيحيين في لبنان، وكالإمامِ زرُّوق مع شيخه القَوْرِيِّ اللذين عملا على حمايةِ الأقلِّيةِ اليهوديةِ في المغربِ فُيْلَ سقوطِ دولة بني مرين، وكالإمامِ العز بن عبد السَّلام الذي حمى أقباطَ مصرَ في أيامِ الحروبِ الصَّليبيةِ.

٤ - صحيفه المدينة وكُلِّي العصر ومبدأ المواطنة :

إنّ مما يُفضي إليه النظر أنّ الواقعَ شريكٌ في إنتاج الحكم الشرعيّ، وواقعُ اليوم يحتاجُ إلى قراءةٍ جديدةٍ على ضوءِ الشرع، وبناءً على الكُلِّيَّاتِ التي مثّلت لبناتِ الاستنباط، وربطِ العلاقة بين الكُلِّيَّاتِ والجُزئيَّاتِ، وتنسيقًا بين كُلِّي الشرائع والإيمان وكُلِّي الواقع والأزمان، من أجل إيجادِ مُشترَكَاتٍ ومعاييرٍ تخفّف من غُلواءِ الاختلافِ، وتُسهّلُ الائتلافَ من خلالِ تحقيقِ مناطِ العدلِ.

إنّ بيئةَ المواطنة اليوم أصبحت واقعًا ارتقى إلى مرتبةٍ كُلِّي الزّمان، وأصبحت تتمثّلُ في ميثاقين يحكّمان الواقعَ: ميثاقُ داخلي، وهو دستورُ البلادِ الذي يُمثّلُ عقدًا بين كلِّ المواطنين. وميثاقُ عالميٍّ، وهو ميثاقُ الأممِ المتّحدة ولواحقه، كإعلانِ حقوقِ الإنسانِ والمُعاهداتِ الدّولية. فالدستورُ الذي أشرنا إليه قبل هو دستورٌ عادلٌ، يمنعُ الحيفَ على الأقلّيّة، ولا يُصادرُ حقَّ الأكثرية في أن تعيشَ قيمها، على قاعدة: «لا ضررَ ولا ضرارَ». . . ودستورٌ له بُعدٌ إنساني يُقرُّه الدّينُ ويُرَكِّيه العقلُ، وله بُعدٌ قيَميٌّ.

إنَّ هذه المواطنةَ نَحَتْ مِنْحَى تَعَاقُديًّا فِي إِطارٍ تَعُدُّديٍّ، أَوْ ما يُسمِّيهِ هابرماس بالوطنيةِ الدستوريةِ، وهو مفهومٌ جديدٌ عبارةٌ عن علاقةٍ مُتبادِلَةٍ بين أَفرادٍ مَجموعَةٍ بشريَّةٍ تَقِيَمُ على أَرْضٍ واحِدةٍ، وليست بالضرورةِ مُنتميةً إلى جَدِّ واحدٍ ولا إلى ذاكرةٍ تاريخيةٍ موحَّدةٍ، أَوْ دِينٍ واحدٍ، إِطارُها دَسْتُورٌ وَقيَمٌ مُشتركةٌ وَنُظُمٌ وَقوانينٌ تَحَدِّدُ واجباتٍ وحقوقِ أَفرادِها، فهو مَجتمَعٌ تَعاوَنِي يَنتمِي أَفرادُه إِلَيهِ بِشَكلٍ تَعاقُديٍّ، بِحيث يَكونُ لِأَحدٍ عَضوٌّ فِيهِ نَفْسُ حَقوقٍ وَواجباتٍ أَقَدَمُ عَضوٍّ، فَهِيَ مُواطنةٌ تَتسامى على الفِئويَّةِ لَكنَّها لا تُلغِيها، والمطلوبُ أَن تَتواءمَ مَعها وتَتعايشَ تَعايشًا سَعيدًا.

يَدعِمُ هذا الواقعَ ورُقِيَّهَ إلى مَرتبَةِ الكُلِّيِّ تَأملُ بِسيطٍ فِيهِ يُفْضِي بنا إلى رَصدٍ كَثيرٍ مِنَ القَضايا، مِن بَينِها:

- الدَّولَةُ الإِسلاميةُ لَم تَعدُ هي تَلكَ الدَّولَةُ الإِمِراطوريةُ، بل إِنَّها دَخَلتْ ضِمْنَ إِطارٍ ما صَار يُعرَفُ بالدَّولَةِ القُطَريَّةِ أَوْ الدَّولَةِ الوَطَنيَّةِ.

- الوَلاءاتُ لَم تَعدُ دَينيَّةً، بل صارت وِلاءاتٍ مُرَکَّبَةً وَمُعَقَّدَةً تَتَحَكَّمُ فِيها عَواملُ مُتداخِلَةٌ لا تَنفَصِلُ عَن بَعْضِها.

- ظهورُ النَّزْعَةِ الْفَرْدِيَّةِ وتلاشي الانتماءاتِ، بحيث لم تُعد الجماعةُ مؤطَّرةً لِفِعْلِ الْفَرْدِ الذي استقلَّ عن جماعته، فظهرت نتيجة ذلك قضايا جديدةٌ في الأسرة والاقتصاد، وحتى السِّياسة.

- وجودُ المواثيقِ الدَّولية والقانونِ الدَّولي مؤطَّراً للعلاقة بالآخر.

- التعدُّديةُ الثَّقافيَّةُ والعِرقيَّةُ والدِّينيَّةُ في كلِّ قُطْرٍ بسببِ العولمة التي صار حضورُ الآخرِ عَقْدِيًّا وثقافيًّا وفكريًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا إجباريًّا رَغم الصَّبْغَةِ الاختيارية التي يظهر بها.

- بروزُ ثقافةِ الحُرِّيَّاتِ عاملاً مؤثِّراً وفاعلاً في الواقع.

- بناءُ نظامِ حقوقِ الإنسانِ وسيلةً لِعَيْشِ الْأَقْلِيَّاتِ بين ظَهْرَانِي الْأَكْثَرِيَّةِ.

كلُّ ما مرَّ معنا يرشِّح أن تكونَ صَحِيفَةُ الْمَدِينَةِ أساساً صالحاً للمُواطَنَةِ التَّعَاوُدِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وخياراً يرشِّحه الزَّمَنُ وَالْقِيَمُ لِلتَّعَامُلِ مَعَ كُلِّ الْعَصْرِ، لتفعيلِ الْمُشْتَرَكِ الْإِنْسَانِي، وتحديدِ عناصرِ الْإِقْصَاءِ وَالطَّرْدِ. فهي

اتفاقٌ أتى من غير حربٍ ولا قتالٍ ولا عُنْفٍ ولا إكراهٍ، اتفاقٌ تداعَتْ إليه أطرافُه طواعيةً للالتفافِ حولَ المبادئ التي تضمَّنَها ضمنَ دائرةِ التفاعلِ الإيجابي مع الواقعِ ومع مُكوِّناتِ مجتمعِ المدينة، وتحقيقِ السَّلمِ الاجتماعي القائمِ على الاعترافِ المُتبادلِ بالحقوقِ والواجباتِ، والقبولِ بما يفرضُه التنوُّعُ من اختلافِ العقائدِ والمصالحِ وأنماطِ الحياة، مع وجودِ مَرَجعيةٍ حاكمَةٍ يفيءُ إليها الجميعُ حالَ التنازُعِ والاختلافِ.

لقد أسَّست وثيقةُ المدينةِ واقعًا جديدًا غيرَ مسبوقٍ في التاريخ، ليحلَّ محلَّ القبيلةِ التي كان العربُ يُقدِّسونها، وأسَّست لمنطقَ الاندماجِ ضمنَ نَسَقِ الدَّولةِ الذي لم تعرِفْهُ الجزيرةُ العربيَّةُ من قبلُ، رَغْمَ حضورِ مفهومِ الدَّولةِ في ذهنِ كثيرٍ من أمراءِ الجزيرة، لكنَّه لم يكنْ مفهومًا ناضجًا، بل كان متأثرًا بصورةِ الدَّولةِ في القُوَّتين الكبيرتين في ذلك الوقت، أي: دولةِ الرُّومِ ودولةِ فارسَ.

إنَّ وثيقةَ المدينةِ كفلت حقَّ المواطنةِ لكلِّ مَنْ هو على

أَرْضِ الْمَدِينَةِ، وهذا يعني أَنَّ مجردَ الانتماءِ إلى الأرضِ هو أحدُ مُقَوِّماتِ المواطنةِ، إضافةً إلى الولاءِ الذي يُمكنُ النَّظْرُ إليه باعتبارِه دوائرَ ومراتبٍ بإمكانها أن تتواصلَ وتتفاعلَ بدلاً من أن تتصادمَ وتتقاتلَ.

وكان من أهم ملامحِ حقوقِ الإنسانِ في الصَّحيفةِ: الاعترافُ بالتعدُّديةِ، وإقرارُ حُرِّيةِ العقيدةِ بإقرارِ أهلِ كلِّ مُعتَقِدٍ على ما يعتقدونه، وأُسِّستِ لقاعدةُ المساواةِ في الحقوقِ والواجباتِ، ضِمْنَ بِنْيَةِ المُجْتَمَعِ المَدَنِيِّ؛ حين نصَّت على مُكوِّناتِ الأنساقِ البشريَّةِ والقَبَلِيَّةِ والمُساواةِ بينها ضِمْنَ الإطارِ الذي تستقيمُ به سَيْرورةُ المُجْتَمَعِ؛ بحيثُ كلُّ جزءٍ منها مُساوٍ للآخرِ الأخرى ومُكافئٌ لها في ما يقبلُ التكافؤَ، لا مكانَ فيها لمنطِقِ التَّابِعِ والمتبوعِ، وبيَّنتِ واجباتِ كلِّ جزءٍ تجاهَ مُكوِّناته أولاً، وثانياً تجاهَ باقي المُكوِّناتِ المُشكِّلةِ لعمومِ المُجْتَمَعِ ضِمْنَ نسقِ العَدْلِ والمصلحةِ سِلْماً وحَرْباً، ثم ثالثاً تجاهَ المُكوِّناتِ المُحيطةِ به، استيعاباً من الصَّحيفةِ للتعدُّدِ الدِّينِيِّ والعِرْقِيِّ والقَبَلِيِّ ضِمْنَ سياقين مُرتبطينِ، هما: سياقُ

العدلِ كأدنى حدٍّ مطلوبٍ، وسياقُ البرِّ الذي هو أعلى المراتبِ المطلوبة في التعاملِ مع الإنسانِ، والذي يقتضي مع مقامِ العدلِ ألا يكونَ هناكَ حديثٌ عن أقليةٍ وسطِ وطنٍ، وإنما الحديثُ عن أمةٍ واحدةٍ.

حُرِّيَّةُ الْمُعْتَقَدِ

هذه القضيةُ ظَلَّتْ على مرِّ التاريخِ وكرَّ الزَّمانِ وتنوَّعَ المكانِ مُشكِلةً من مشاكلِ الإنسانِ.

فأولاً: ما هو مفهومُ «الحُرِّيةِ»؟ وما هو مفهومُ «المُعْتَقَدِ»؟
المُشكِلةُ في العلاقةِ بين ممارسةِ الحُرِّيةِ وحُرِّيةِ التدينِ،
والعلاقةِ بين حقوقِ الفردِ وبين حقوقِ الجماعةِ، ومسألةِ
النَّظامِ العامِّ - وعلاقةِ النكيرِ العامِّ بالتشريعِ؟

ثم القضايا العملية - أي: موقفُ الدينِ من نفسه - هل هو
مركزي أو مُنفتحٌ؟

فإذا تجاوزنا مسألةَ الموقفِ النَّصي أو آراءِ الفقهاءِ في
تفسيره بين النصوصِ العامةِ التي تؤكدُ أن ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾
[البقرة: ٢٥٦] و﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضْطَرٍ﴾ ﴿[الغاشية: ٢٢] .

فهل هي مسألة سُلْطَانِيَّة؟ أم هل هي مسألة تَعْبُدِيَّة إيمانيَّة؟
بمعنى أَنَّ للسُّلْطَانِ فيها تَقْدِيرًا حَسَبَ المَصْلَحَةِ؛ لَأَنَّهَا تُهَمُّ
المُجْتَمَعَ -القانون العام- وليسَ الأفراد؟ أم أَنَّهَا تَعْبُدِيَّة لا
تملكُ الخِيَارَ في تَعْطِيلِهَا أو تَبْدِيلِهَا؟

ثم ما هو رأيُ المُجْتَمَعِ الذي يُشْرَعُ له؟ وهل التَّحْرِيمُ إِلَّا
نَتِيجَةُ النِّكَيرِ الجَمَاعِيِّ، كما يقولُ القانونُ؟

فهل يجوزُ أَنْ نَشْرَعَ ما لا يَرْضَاهُ؟ وهل يَجِبُ على السُّلْطَةِ
أَنْ تَدْخَلَ في حَرْبٍ مع المُجْتَمَعِ؟ أم أَنَّ المُقَارَبَةَ الثَّقَافِيَّةَ
عليها أَنْ تَسِيرَ مع المُقَارَبَةِ القانونِيَّةِ؟

وهل نَحْنُ أَمَامَ فَنَاعَاتٍ زَائِفَةٍ تَبْحَثُ عن البَطُولَاتِ وعن
تَشْجِيعٍ غَيْرِ مُسْتَحَقٍّ مِنْ طَرَفِ أَصْدِقَائِنَا مِنَ الدِّيَانَاتِ الأُخْرَى؟

المادة (١٨) من إعلانِ حقوقِ الإنسانِ التي تَفْتَحُ البابَ
لِفَهْمِ النِّسْبِيَّةِ، باعتبارِ مُرَاعَاةِ النِّظَامِ العامِّ في كُلِّ بَلَدٍ.

حيثُ يرى الفقهاءُ المُسْلِمُونَ القُدَامَى أَنَّ جَارَكَ المَسِيحِي
إِذَا نَفَى نُبُوَّةَ النَّبِيِّ الخَاتَمِ فَإِنَّكَ لَا تُزْعِجُهُ، لكن إِذَا شَتَمَ فَلَكَ
الحَقُّ في رَفْعِهِ إلى السُّلْطَاتِ المُخْتَصَّةِ؛ لِأَنَّ الأَفْرَادَ

لا يمارسونَ أخذَ الحقوقِ، وقد يرى البعضُ أنَّ ردَّ الفعلِ الطَّبيعي هو ما قاله البابا فرانسيس في نفسِ الموضوع: مَنْ شَتَمَ أُمَّكَ فَإِنَّكَ سَتَلْطُمُهُ عَلَى خَدِّهِ.

إنَّها كلمةٌ قويَّةٌ للحدِّ من الحماسِ الرَّائدِ لدى البعضِ لهدمِ القدسيةِ بطرقٍ بذيئةٍ وغيرِ متحضِّرةٍ، وفي نفسِ الوقتِ مُسبِّبةٌ لحروبٍ ودمارٍ لا ضرورةَ له ولا فائدةَ.

أليسَ من الحِكْمَةِ أن نعتبرَ ما قامت به دولةُ الإماراتِ في تحريمِ هذا السلوكِ يُمثِّلُ إجراءً عقلاً ثباتاً وحِصيفاً وحَكِماً في مصلحةِ الجميعِ، سواءً أولئك الذين لديهم الرغبةُ الجامحةُ في تحقيقِ ذاتِهِم من خلالِ الإيذاءِ وإهانةِ الغيرِ، وفي مصلحةِ بقيةِ شرائحِ المُجتمعِ التي تريدُ أن لا تتعرَّضَ مُقدَّساتُها لِعَبَثِ بعواطِفها العميقة، حيثُ أصبحَ هؤلاءِ يدركونَ أنَّ الدولةَ تتحمَّلُ مسؤوليتها في الحفاظِ على النظامِ العامِّ، وليسَ عليهم إلا أن يرفعوا الأمرَ لها؟

أيُّها الزُّملاءُ الأفاضلُ!

لعلَّكم لا تنتظرونَ مِنِّي فتوى أو إعلاناً صحفياً للحُكمِ على

مُعْتَقِدَاتِ النَّاسِ وَضَمَائِرِهِمْ بِالْقِيُودِ وَوَضَعَ الْجُدْرَانِ
وَالْحُدُودَ، فَهَذَا الْأَمْرُ لَيْسَ إِلَيَّ؛ لِأَنَّ ضَمَائِرَ النَّاسِ لَا
يَمْلِكُهَا إِلَّا رَبُّ النَّاسِ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ لَنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ: ﴿فَذَكِّرْ
إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر]،
﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ
تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس]، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة]:
[٢٥٦]، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ٦] .

كما أنكم لا تنتظرون مني أن أعلن براءة لمن يشتم رموزَ
الإنسانية، الذين نؤمن بأن معنى الوجود والعلاقة بين الخالق
والمخلوق وصل إلينا عن طريقهم، ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] ؛ فلن أدعو أحداً لشتَم الذين يؤمن
بمليارات البشر بإمكان الخلاص عن طريقهم .

فهل ستكون المقاربة لاهوتية تيولوجية؟ طبقاً للتفسيرات
والتأويلات وآراء الفقهاء وأكثرها معروف، وبالتأكيد فإنه لا
يُبهج المُصابين بهوس إيذاء المُقدَّسات .

أم أن المقاربة مجتمعية تُراعي أوضاع المجتمعات

المُسلمةِ والتَّراكماتِ التاريخيّةِ المُتفاوتةِ في جَوهرها وفي نتائجها؟ إلى حدِّ القولِ بأنَّ إعلانَ حقوقِ الإنسانِ والحُرِّيَّاتِ لم تُكنْ مَعْنِيَّةً به ولم تُكنْ ممثِّلَةً في لَجنتِهِ، فلم تُمثِّلِ الدُّولُ الإسلاميَّةُ في لَجَنَةِ صِياغةِ الإعلانِ؛ لقد كانَ الأستاذُ شارل مالِكٌ قانونيًّا ممتازًا ولكنَّه كانَ عضوًا بِصِفَةِ شَخْصِيَّةٍ.

هل المسألةُ من القضايا السُّلطانيَّةِ؟ أم من الأحكامِ التَّعبيديَّةِ الإيمانيَّةِ؟

وما هو تأثيرُ الموضوعِ على السُّلمِ الاجتماعيِّ؟
وما هو الميزانُ الصَّحيحُ بين الصَّميرِ الجَمعيِّ وبين السُّلوكِ الفرديِّ؟

وما هو تأثيرُ العولمةِ وخطابِ المُنظَّماتِ الغَربيَّةِ التي تستقطُبُ بوسائلِها الخاصَّةِ المُجتمعَ؟

كلُّ تلكِ الأسئلةِ على العُلَماءِ وقادَةِ الفكرِ أن يُناقِشوها في حوارٍ دَاخلِيٍّ للوصولِ إلى قَراراتٍ جماعيَّةٍ تأخذُ بعينِ الاعتبارِ:

- نصوص الشريعة ومقاصدها وسيقاتها الزمنية.

- تغيّرات البيئة العالمية.

- واقع المجتمعات المسلمة، والمحافظة على السلم الاجتماعي.

وبذلك تكون تلك القرارات منسجمة مع ضمائهم ومع مصالح المجتمعات في السلم، دون إهمال للمزاج العالمي.

وفي تلك اللحظة يمكن اللقاء مع إخواننا من المسيحيين وغيرهم، وفي مقدمتهم: الكنيسة؛ لتقديم نتائج عملنا، ولنشاطهم حكمتهم في السلام والحرية المستولة التي هي -وخذها- السبيل إلى الوئام.

تلك هي المنهجية التي اتبناها لتقديم إعلان مرآكش الذي أعلن فيه العلماء الحقوق المتساوية والمواطنة الكاملة وحرية الممارسة الدينية للطوائف غير المسلمة في البلاد الإسلامية.

وأرى أنه من المفيد أن أسوق بعض الفقرات من هذا الإعلان تخدم حرية المعتقد.

١- إِنَّ الْبَشَرَ جَمِيعًا عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَمُعْتَقَدَاتِهِمْ كَرَّمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِنَفْحَةٍ مِنْ رُوحِهِ فِي أَبِيهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

٢- إِنَّ تَكْرِيمَ الْإِنْسَانِ اقْتَضَى مِنْهُ حُرِيَّةَ الْاخْتِيَارِ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٦] ، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: الآية ٩٩] .

٣- إِنَّ الْبَشَرَ -بَغَضِ النَّظَرِ عَنْ كُلِّ الْفَوَارِقِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ بَيْنَهُمْ- إِخْوَةٌ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

٤- إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَقَامَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ عَلَى الْعَدْلِ، وَجَعَلَهُ مَعْيَارَ التَّعَامُلِ بَيْنَ الْبَشَرِ جَمِيعًا دَرَاءً لِلْكِرَاهِيَةِ وَالْحَقْدِ، وَرَغَبٌ فِي الْإِحْسَانِ جَلْبًا لِلْمَحَبَّةِ وَالْمُودَّةِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠].

٥- إِنَّ الْإِسْلَامَ يَدْعُو إِلَى الْبِرِّ بِالْآخَرِينَ دُونَ تَفْرِيقٍ بَيْنَ

المُوافِقِ والمُخالفِ في المُعتقَدِ، ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُّوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) [المُمتَحَنَة : ٨] .

٦- إنَّ «صحيفة المدينة» التي أقرّها سيدنا محمد ﷺ لتكون دستوراً لمُجتمع متعدّد الأعراق والديانات كانت تجسيدا للكلّيات القرآنية والقيم الإسلامية الكبرى .

٧- إنَّ السِّياق الحضاريّ المُعاصرَ يتوافقُ مع «وثيقة المدينة» ؛ لأنّها تقدّم للمسلمين الأساسَ المرجعيّ المبدئيّ للمواطنة، إنها صيغةٌ مُواطنةٌ تعاقديةٌ، ودستورٌ عادلٌ لمُجتمع تعدديّ أعراقاً وديانةً ولغةً، مُتضامين، يتمتّع أفرادُه بنفسِ الحقوق، ويتحمّلون نفسَ الواجبات، وينتمون -برغم اختلافهم- إلى أمةٍ واحدةٍ .

١٥- إنَّ «صحيفة المدينة» تضمّنت بنودها كثيراً من مبادئ المواطنة التعاقدية، كحرية التدين وحرية التنقل والتملك، ومبدأ التكافل العام، ومبدأ الدفاع المُشترك، ومبدأ العدالة والمساواة أمام القانون .

١٦- إنَّ مقاصدَ «صحيفة المدينة» هي إطارٌ مناسبٌ
 للدساتيرِ الوطنيَّةِ في البلدانِ ذاتِ الأغلبيةِ المسلمةِ، وينسجمُ
 معها ميثاقُ الأممِ المتَّحدةِ ولواحقُه، كإعلانِ حقوقِ
 الإنسانِ، مع مُراعاةِ النظامِ العامِّ.



التَّعَدُّدِيَّةُ وَالْحُرِّيَّةُ الدِّينِيَّةُ

منير أنيس^(١)

لا شكَّ أن التنوع هو سمة من سمات الخلق؛ فلقد شاء الله أن تكون الخليقة متنوعةً، وأن يكون الجنس البشري متنوعاً أيضاً.

ولقد استمر هذا التَّنوعُ في نسل آدم حتى صار هذا النسل أمماً وشعوباً متنوعةً، فيها من عبدَ الله الواحدَ، وفيها من بحث عن آلهةٍ أخرى، وهذا أدَّى إلى التعدد الديني الذي جاء نتيجةً بحث الإنسان عن الله، وعن القوة الخارقة التي تقف خلفَ الخليقة والظواهر الطبيعية التي تحدث، فكما قال القديس أغسطينوس: «يا الله لقد خلقتنا لذاتك ونفوسنا لن تجد راحتها إلا فيك»، فإن الإنسان دائم البحث عن الله.

(١) رئيس أساقفة الطائفة الأسقفية بمصر، وشمال إفريقيا والقرن الأفريقي، وإقليم القدس والشرق الأوسط.

ونحن ندرك كأبناء إبراهيم أن الله أحب وما زال يحب كل الأمم، فدعوته لإبراهيم تظهر ذلك بوضوح حيث قال لإبراهيم: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. (٢) فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعْظِمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. وَأُبَارِكَ مُبَارِكَكَ، وَلَا عِنَاكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكَ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الْأَرْضِ»^(١).

وفى هذه الآيات نجد أن الله لا يعد بركة لإبراهيم وعائلته فحسب، وإنما وعد بركة لجميع قبائل الأرض.

وللأسف لم يدرك شعب إسرائيل حقيقة أن كل شعوب الأرض -وليس فقط إسرائيل- هي خليفة الله التي أحبها وقصد أن يباركها من خلال أبناء إبراهيم، فاختار شعب إسرائيل وأعلن عن ذاته ووحدانيته حتى يعبد هذا الشعب فيكون مثلاً وبركة لكل قبائل وشعوب الأرض، إلا أن شعب إسرائيل نظر إلى ذاته كشعب الله المختار، وبكبرياء انعزل عن باقي الشعوب وحاربها، وفى أحيان أخرى ابتعد

(١) (تك ١٢ : ١-٣).

عن الله وعبدَ آلهة الأمم، وبالرغم من أن الله قد تكلم مع هذا الشعب مرارًا من خلال أنبياء العهد القديم إلا أنه ابتعد عن الله وقصده، لذلك كتب أشعيا النبي «(٣) الثَّوْرُ يَعْرِفُ قَانِيَهُ وَالْحِمَارُ مِعْلَفَ صَاحِبِهِ، أَمَّا إِسْرَائِيلُ فَلَا يَعْرِفُ. شَعْبِي لَا يَفْهَمُ»^(١)

واليوم ونحن شعوبٌ متنوعةٌ لها أديانٌ متعددةٌ علينا أن نسأل كيف يتحقق عهدُ الله لإبراهيمَ من خلال أولاده أي من خلالنا؟ وكيف نتبارك ونبارك بعضنا البعض بالرغم من التنوع والتعدد الذي نعيشه اليوم؟

لا شك أن التعددية الدينية أصبحت واقعًا لا يمكن تجاهله اليوم، فلم يعد هناك شعبٌ يدين بديانة واحدة، ويعيش في دولة واحدة، فلقد ساعد تطورٌ وسائل الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ على وجود حركةٍ مستمرةٍ من التثقل بين شعوبِ الأرض.

(١) (أش ١: ٣).

فاليوم نجد الملايين من العرب يعيشون في العالم الغربي، ونجد الملايين من الصينيين يسكنون في كل دول العالم، والملايين من الهنود والباكستانيين يعيشون في دول الخليج العربي وأوروبا الغربية، كل هؤلاء يتبعون ديانات وعقائد متنوعة، وحتى إن لم ينتقل الناس من مكان إلى آخر فإننا ندرك وجود ديانات ومعتقدات تختلف عما نؤمن به.

كل هذا أدى إلى أن الغالبية العظمى من المجتمعات في العالم أصبحت مجتمعات ذات تعددية دينية، ولا شك أن هذه التعددية الدينية لها آثار متنوعة، فمن الممكن أن تشكل تهديدًا للمجتمع بسبب الصراعات التي يمكن أن تحدث بين أتباع الديانات، ويمكن أن تكون غنى وثراء للمجتمع نظرًا للتنوع الحضاري الذي يجلبه أتباع الديانات المختلفة للدولة التي يعيشون فيها.

ولهذا فنحن نجد أن استجابة الحكومات أو المجتمعات لهذه التعددية يختلف من مجتمع لآخر، وهذه الاستجابات تحدّد مقدار الحرية الدينية المتاحة في كل مجتمع.

وفيما يلي أمثلة للاستجابات المتنوعة للتعددية الدينية :

١- هناك بعض الحكومات والمجتمعات تتجاهل ولا تعترف بالتعددية الدينية، وهذا يؤدي إلى حرمان أتباع الديانات الأقل عددًا من الأغلبية الدينية في ذلك المجتمع من ممارسة شعائرهم ومعتقداتهم، وأيضًا من المشاركة في بناء المجتمع من خلال الوظائف القيادية والمؤثرة.

٢- وهناك بعض الحكومات والمجتمعات تعترف بوجود التعددية الدينية لكن تعتبر أن ديانة الأغلبية هي دين النظام، وتمنح أتباع الديانات الأخرى مساحات محدودة لممارسة شعائرهم ومعتقداتهم، كما تسن لهم قوانين خاصة بهم وهذا له جوانبه الإيجابية والسلبية.

٣- هناك حكومات ومجتمعات تعترف بالتعددية وتؤكد على حق المواطنة بصرف النظر عن تعداد أتباع الديانات فالجميع سواسية أمام القانون، ومتساوون في الحقوق والواجبات، وهذه غالبًا ما تكون دولاً مدنية تفصل بين الدين والدولة إلا أنها غالبًا ما تكون هذه المجتمعات مشجعة للعلمانية المتطرفة.

إن الاعتراف بالتعددية الدينية وإتاحة الحرية لكل أتباع الديانات أن يعتقدوا كما يشاءوا يخلق مناخاً يعيش فيه الجميع في تناغمٍ وانسجامٍ، وهذا لا يعني الموافقة على هذه العقائد أو التهاون في حماية العقيدة والدين؛ بل إن هذا الاعتراف بالتعددية يساعدنا أن نتداخل مع بعضنا البعض ونتحاور حتى نتفهم إيمان الآخرين، ونعرف كيف نتعاون معاً لنحقق انسجام المجتمع.

علينا نحن الذين نؤمن بالله الواحد إدراك أن إلهاً قادراً على أن يحمي الحق؛ فلسنا مسئولين عن حماية الحق الذي نؤمن به؛ فالله وحده قادرٌ على أن يفعل ذلك، فحرمان البعض من الحرية الدينية كرد فعلٍ للتعددية الدينية يؤدي إلى انهيار للمجتمعات بسبب عدم الاحترام والإهانة المتبادلة بين أبناء المجتمع، وعندما يحاول البعض أن يحمي الدين والحق باستخدام القوة فإن هذا يؤدي إلى الحروب مثلما حدث في الحروب الدينية في أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت في القرنين السادس عشر والسابع عشر،

ويؤدي أيضًا إلى العمليات الإرهابية التي تجري باسم الدين، ولحماية الحق كما يحدث في عالمنا اليوم.

ولا شك أن قبول التعددية الدينية يقودنا إلى أماكن صعبة، خاصة بين أتباع الأديان التي تشمل الدعوة لها أو الكرازة بها مثل الإسلام والمسيحية، فالإيمان بهما يدفع المسلمين والمسيحيين إلى دعوة غيرهم للإيمان بما يؤمنون به، وهذا يؤدي إلى تضارب بين الرغبة في التعاون والحوار وبين الدعوة أو الكرازة، فما الحل؟

في رأيي، أن الحل هو أن نتأمل قليلاً فيما يقوله المؤذن: «اللَّهُ أَكْبَرُ»؛ فالله أكبر منا جميعاً، وعلينا أن نشق أن الله يهدي من يشاء، فنحن لا نستطيع أن نجذب الآخرين لإيماننا لكن الله وحده يستطيع.

والدول التي تقبل التعددية الدينية تؤكد في قوانينها على حرية الاعتقاد، ونحن كمسيحيين وكمسلمين نؤمن أن الله وحده هو الديان وفاحص القلوب كما قال: «أنا الرب فاحص القلب مختبر الكلى لأعطي كل واحد حسب طريقه،

حَسَبَ ثَمَرِ أَعْمَالِهِ»^(١) لذلك يجب على كل المسلمين والمسيحيين أن يكون لهم الحرية فى مشاركة إيمانهم بدون أن يشعروا أيُّ منهم بالتهديد من جرّاء ذلك، فإذا كان كلُّ منّا يؤمنُ أنَّ إلهنا هو الله الواحدُ الحقُّ فيجب علينا أن نثق أن الله سوف يحمي الحق فى قلوب المؤمنين.

ولاشكَّ أن للقادة الدِّينيين دورًا محوريًّا فى تشجيع الشعوبِ والحكوماتِ لقبول التعددية الدينية الصحيحة بما ينطوى ذلك على ضمان الحرية الدينية لأتباع الديانات.

إنَّ الاختلافَ فى العقيدة لا يمنع الاحترامَ المتبادلَ، وإنَّ إعطاءَ مساحةٍ للآخر أن يمارس شعائره الدينية بحرية وبدون قيود هو علامةٌ للكرمِ ونضجِ التقوى.

إن هذا الدور لا يمكن أن يلعبه إلا العالمُ بأمور دينه، والواثقُ فى إيمانه لأن مثلَ هذا العالمِ الواثق لا يشعر بالتهديد من إيمان الآخرين.

(١) (أر ١٧ : ١٠).

أخيراً أودُّ أن أؤكد على ماسبق أن ذكرته، وهو أن ثقتنا
في عظمة وقدره الله تساعدنا أن نقبل التعددية دون أن نشعر
بالتهديد أو الخوف ودون أن نأخذ مكانه كديان عادلٍ.



الجلسةُ الثانيةُ

مُبادَراتٌ وتَجاربٌ في العيشِ المُشتركِ

استراتيجية التسامح

بدولة الإمارات العربية المتحدة

لمعالي الشيخة لبنى بنت خالد القاسمي^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب - شيخ
الأزهر - رئيس مجلس حكماء المسلمين .

القس جاستن ويلبي - رئيس أساقفة كانتربري .

أصحاب المعالي والسعادة .

السيدات والسادة .

الحضور الكريم .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بدايةً: يسرني مشاركتكم في هذا الحوار البناء بين مجلس

(١) وزيرة الدولة للتسامح بالإمارات العربية المتحدة.

حكّماء المسلمين والطّائفة الأسقفية الأنجليكانية، والذي يحمل عنوان: «نحو عالمٍ متّفاهمٍ مُتكاملٍ»، مُتمنيةً للجميع التّوفيق والنّجاح والتّقدّم.

الحضور الكريم.

إنّ دولة الإمارات قيادةً وحكومةً وشعباً تنطلق من ثوابت راسخة مبنية على أُسس الاحترام المتبادل والتّعاون مع الآخرين، وتعزيز قنوات التّفاهم والحوار والتّواصل، والتّأكيد دومًا على قبول الآخر فكريًا وثقافيًا ودينيًا وطائفيًا، ذلك أنّ الإمارات تُؤمن ببناء الإنسان والإنسانية، وتحرص على انسجام وتناغم النّسيج المُجتمعي.

وعندما نتحدث عن استراتيجية التسامح في دولة الإمارات العربية المتّحدة؛ فإنّنا نشير إلى البرنامج الوطني للتّسامح، والذي يعمد على سبعة أُسس رئيسية:

أولاً: الدّين الإسلامي الحنيف:

فالإسلام يؤكّد ويحثّ على التّسامح والتّعايش والوئام واحترام الآخر، وينبذ العُنف والكراهية والتّطرف والعنصرية والتّمييز.

ثانيًا : دستورُ الإماراتِ :

فقد نصَّ الدُّستورُ الإماراتي على أن تكونَ علاقاتُ دولةِ الإماراتِ مَعَ مُختلفِ الدُّولِ قائمةً على أساسِ الاحترامِ المتبادلِ، والجميعُ سواسيةً أمامَ القانونِ، وحريةُ القيامِ بشعائرِ الدينِ مَصونةٌ بالقانونِ.

ثالثًا : إرثُ زايد والأخلاقُ الإماراتية :

فقد عُرِفَ الإنسانُ الإماراتي الأصيلُ بأخلاقهِ الطَّيبةِ، وصفاتهِ الحميدةِ في التَّعاملِ مَعَ الآخَرينَ.

رابعًا : المواثيقُ الدَّوليةُ :

حيثُ إنَّ دولةَ الإماراتِ العربيَّةِ المتحدَّةِ مُلتزمةٌ بالعديدِ مِنَ الاتِّفاقياتِ الدَّوليةِ المعنِيَّةِ بالتَّسامحِ والتَّعايشِ وحقوقِ الإنسانِ، ونبذِ العُنْفِ والتَّطرفِ والكراهيةِ.

خامسًا : الآثارُ والتَّاريخُ :

تَزخرُ دولةُ الإماراتِ بالكثيرِ مِنَ الآثارِ التي تحكي تاريخَ المكانِ، وذاكرةُ أبناءِ الإماراتِ مليئةٌ بالقصصِ التي تَعكِّسُ واقعَ التَّسامحِ والوئامِ كقيمِ إنسانيةٍ خالدةٍ.

سادساً : الفطرة الإنسانية :

ذلك أنَّ الفِطْرَةَ الإنسانيَّة السَّليمةَ جَبَلْتَنَا على التَّسامحِ والتَّعارفِ والتَّعايشِ واحترامِ الآخرينَ وقَبولهم ، دونَ تعصُّبٍ ولا كراهيةٍ ولا إقصاءٍ .

سابعاً : القيمُ المُشتركة :

بمعنى أننا نشارك -كأسرةٍ دوليةٍ- في الكثيرِ مِنَ القيمِ والمبادئِ والمصالحِ التي تَضُمُّنُ للجميعِ التَّفاهمَ والتَّعاونَ والاحترامَ والتَّسامحَ والتَّعايشَ والانسجامَ .

الحضورُ الكريمُ . . .

للبرنامجِ الوطنيِ للتَّسامحِ خمسةُ محاورَ :

المحورُ الأوَّلُ : تعزيزُ دورِ الحكومةِ كحاضنةٍ للتَّسامحِ .

ومن أهمِّ مبادراته :

١ - المعهدُ الدَّوليُّ للتَّسامحِ : والذي أُعْلِنَ عنه مؤخَّراً ،

وسيعملُ على تقديمِ المشورةِ والخبراتِ اللازمةِ في مجالِ السِّيَاساتِ التي تُرسِّخُ قيمَ التَّسامحِ بينَ الشُّعوبِ .

٢- صوتُ التَّسامحِ: أي: تفعيلُ أدوارِ مُختلفِ أفرادِ المُجتمعِ؛ لِيُساهموا إيجاباً في نشرِ قيمِ التَّسامحِ محلياً وإقليمياً ودولياً.

٣- برنامجُ المسؤوليةِ التَّسامُحيَّةِ للمُؤسَّسات: سيعملُ هذا البرنامجُ كَمقياسٍ يقيسُ مدى تعزيزِ قيمِ التَّسامحِ والتَّعايشِ، ودَعْمِها داخلَ بيئَةِ العملِ وفي أوساطِ المُجتمعِ.

٤- ميثاقُ التَّسامُحِ الإماراتي: نقصدُ بهذا الميثاقِ وَضَعَ إطارٍ عامٍّ لمُختلفِ الجهاتِ الحكوميَّةِ ولأفرادِ المُجتمعِ؛ بهدفِ ترسيخِ قيمِ التَّسامحِ، مثلاً: ميثاقِ المُعلِّمِ، وميثاقِ الطَّالِبِ، وميثاقِ المُواطنِ، وميثاقِ المُقيمِ، وميثاقِ الموظفِ.

المحورُ الثَّاني: ترسيخُ دورِ الأسرةِ المترابطةِ في بناءِ المُجتمعِ.

وفي هذا المحورِ سَتُطلَقُ العديدُ مِنَ المُبادراتِ المُشتركةِ معَ وزارةِ الدَّاخليةِ، ووزارةِ تنميةِ المُجتمعِ، ووزارةِ الثَّقافةِ وتنميةِ المعرفةِ، ووزارةِ التربيةِ والتَّعليمِ، والهيئةِ العامَّةِ للشُّؤونِ الإسلاميَّةِ والأوقافِ.

المحور الثالث: تعزيز التسامح لدى الشباب ووقايتهم من التعصب والتطرف.

وأهم مبادراته:

١- قمة رؤاد التسامح: عبارة عن قمة مخصصة لجميع الرُواد في وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي، الذين يُسهمون إيجاباً في نشر قيم التسامح في المجتمع.

٢- رابطة لمطوّعي التسامح: ستؤسس هذه الرابطة بالتعاون مع مؤسسة الإمارات للشباب؛ بهدف تعزيز التواصل بين مختلف الجاليات والثقافات في الدولة.

٣- إضافة مبادئ التسامح للأندية الرياضية والأندية الطلابية في الجامعات والكليات والمعاهد والمدارس.

٤- اختيار شخصية كرتونية مؤثرة؛ لإبراز قيم التسامح والتعايش ونبذ التعصب والتطرف.

المحور الرابع: إثراء المحتوى العلمي والثقافي للتسامح.

ومن أهم مبادراته:

١- الدليل الإرشادي الإماراتي للتسامح: والذي سيحتوي

على أهمِ المُصطلحاتِ والقوانينِ المَحَلِّيَّةِ والدَّولِيَّةِ المُرتبطةِ بموضوعِ التَّسامُحِ والسَّلامِ، ونبيذِ التَّطَرُّفِ والكُراهِيةِ.

٢- تأسيسُ مَوْقِعٍ إلكترونيٍّ للمَراجعِ الموثوقةِ ذاتِ العلاقةِ بالتَّسامُحِ.

٣- إعدادُ البرامجِ الإذاعيَّةِ والتلفزيونيةِ التي تنشرُ ثقافةَ التَّسامُحِ والاحترامِ والحوارِ والتَّفاهُمِ.

المحورُ الخامسُ: المُساهمةُ في الجهودِ الدَّوليةِ لتعزيزِ التَّسامُحِ وإبرازِ دورِ الدَّولةِ كبلدٍ مُتسامِحٍ.

وأهمُ المبادراتِ في هذا المحور:

١- جائزةُ مُحَمَّد بنِ راشدٍ للتَّسامُحِ: والتي تَهدُفُ إلى بناءِ قياداتٍ وكوادرٍ عربيَّةٍ شابَّةٍ في مجالِ التَّسامُحِ، وتَدعُمُ الإنتاجاتِ الفكريَّةِ والثَّقافيَّةِ والإعلاميَّةِ المُرتبطةِ بتروسيخِ قيمِ التَّسامُحِ والانفتاحِ على الآخرِ.

٢- المؤتمرُ الدَّوليُّ للتَّسامُحِ: يَهدُفُ إلى استضافةِ الخُبراءِ والمُفكِّرينَ؛ لتعزيزِ قيمِ التَّسامُحِ في المُجتمعِ الدَّوليِّ، ووضعِ الحلولِ لتحدياتِ كُلِّ مَرَحَلَةٍ.

٣- عقد لقاءات سنوية مع سُفراء الدول الصديقة والشقيقة لدى دولة الإمارات.

٤- عقد مُلتقيات سنوية مع سُفراء الدولة في الخارج.

٥- المشاركة المستمرة في الأنشطة والفعاليات والاجتماعات الدولية ذات العلاقة بموضوعات حوار الحضارات والأديان والتسامح والتعايش، ونبذ العنف والتطرف والعصبية والكراهية والتمييز.

الحضور الكريم...

ختامًا: أشكرُ المنظمين والقائمين على حوار مجلس حكماء المسلمين والطائفة الأسقفية الأنجليكانية، مُتمنيةً التوفيق والنجاح للجميع، والخروج بتوصيات تُعزّز قيمنا الإنسانية المشتركة، وترسخ قيم الحوار والسلام والتفاهم والوئام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



بَيْتُ الْعَائِلَةِ الْمِصْرِيَّةِ

الأنبا إرميا^(١)

مَعَ انْتِشَارِ الْمَوْجَاتِ الْإِرْهَابِيَّةِ فِي الْعَالَمِ؛ أَصْبَحَتْ
الْحَاجَةُ إِلَى تَحْقِيقِ السَّلَامِ مِنْ أَهَمِّ مُتَطَلِّبَاتِ عَصْرِنَا الْحَالِي؛
فَبالسَّلَامِ يَتِمَّتَعُ الْبَشَرُ بِالْهُدُوءِ وَالْطَّمَأْنِينَةِ فَيَجِدُّونَ فِي سَعِيهِمْ
وَيُنْتَجُونَ، وَفِي غِيَابِهِ يَتَحَوَّلُ الْعَالَمُ إِلَى غَابَةِ وَأَشْبَاهِ بَشَرٍ قَدْ
فَقَدُوا مَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ إِنْسَانِيَّةٍ.

وَالسَّلَامُ فِي «الْإِسْلَامِ» هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، فِي «سُورَةِ
الْحَشْرِ»: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ
السَّلَامُ﴾ [الْحَشْرِ: ٢٣]، وَفِي «الْمَسِيحِيَّةِ»، نَقُولُ عَنْ اللَّهِ إِنَّهُ:
«إِلَهُ السَّلَامِ»، وَ«مَلِكُ السَّلَامِ»، وَ«مَصْدَرُ السَّلَامِ لِلْجَمِيعِ».

لَقَدْ اتَّفَقَتِ الْأَدْيَانُ عَلَى أَهْمِيَّةِ السَّلَامِ لِلْإِنْسَانِ، وَالسَّلَامُ
دِعَامَةٌ قَوِيَّةٌ فِي التَّعْلِيمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي كَثِيرٍ مِنَ السُّوَرِ، فِي

(١) الأُمِينُ الْعَامُ الْمُسَاعِدُ لـ «بَيْتِ الْعَائِلَةِ الْمِصْرِيَّةِ».

«سورة البقرة»: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وفي «سورة الحجرات»: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَاُنْثٰى وَجَعَلْنٰكُمْ شُعُوْبًا وَقَبَاۗئِلَ لِتَعَارَفُوْۤا اِنَّ اَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ اَتْقٰىكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ وعبارة «لتعارفوا» هدف قوي وعميق.

إن الله يريد من البشر أن يتعارفوا جميعاً، وأن يعيشوا على أساس من الود والمحبة، وفي المسيحية: «طوبى لصانعي السلام...»، «وثمر البر يزرع في السلام...». لقد أصبح الآن كثير من البشر يئنون تحت وطأة فقدان السلام وانتشار الموجات الإرهابية، مما يجعل ضرورة إلى تكاتف العالم بأسره للتصدي لها، وإن كانت تتعدّد جوانب التصدي للإرهاب من اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وأمنية؛ إلا أن التصدي الفكري يعدّ أهم الوسائل التي ينبغي الاهتمام بها فلولها أهمية كبيرة؛ إذ هو أحد طرق حماية المجتمع، وبصفة خاصة الشباب، من الانجراف في هذا التيار المدمر له، وللمجتمعات والأوطان قاطبة.

والتصدّي الفكريّ له دوران؛ دورٌ تصحيحيّ يتصدّى للتّلاعبِ الفكريّ الإرهابيّ المغلوط وللانصياع خلف ما يحمله من هدمٍ وتدميرٍ، وآخرٌ تعليميّ لغرسِ القيمِ الصحيحةِ التي تُعلّمها الأديانُ وترفعُ شأنَ الإنسانِ.

ومن هنا بدأت في «مِصر» فكرةُ إنشاءِ «بيت العائلةِ المصريّة».

* فكرةُ «بيت العائلةِ المصريّة»:

يُعدُّ فضيلةُ الإمامِ الأكبرِ الأستاذِ الدكتور/ أحمد الطيّب، شيخُ الجامعِ الأزهرِ، هو صاحبُ الفكرةِ في إنشاءِ «بيت العائلةِ المصريّة»، وقد حازتِ الفكرةُ ترحيبَ -مُثلثِ الرّحماتِ- قداسةِ البابا شنودة الثالث، بابا الإسكندريّة وبطريك الكرازة المرقسيّة السّابع عشرَ بعد المئة؛ وذلك لثقتِهِ ومحبتِهِ لفضيلةِ الأستاذِ الدكتور «أحمد الطيّب»؛ فوافقَ على الفكرةِ وعلى المشاركةِ في تأسيسِ «بيت العائلةِ المصريّة».

ظهرتِ الفكرةُ بعد واقعةِ «كنيسة سيّدة النّجاة بالعراق» في الحادي والثلاثين من أكتوبر عام ٢٠١٠م، ثم الاعتداء على

«كنيسة القديسين بالإسكندرية» في الدقائق الأولى من غرة عام ٢٠١١م؛ فقد كان من الواضح آنذاك أن تخطيطاً موجّهاً إلى منطقة «الشرق الأوسط» لإحداث فرقة بين المسلمين والمسيحيين فيها، يشتمل أيضاً على نشر فكر إرهابي مؤداه «رفض الآخر»، فجاءت المبادرة في أثناء زيارة وفد الأزهر برئاسة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب، لقداسة البابا شنودة الثالث في الثاني من يناير ٢٠١١م، لتقديم العزاء بعد واقعة «كنيسة القديسين بالإسكندرية»، فعرض فضيلته الفكرة على قداسة «البابا شنودة»، ولقيت ترحيباً من قداسته، وبدأ التنفيذ العملي لتحقيقها.

وبفضل الرؤية الثاقبة الواضحة المستنيرة، والجهد الدءوب لفضيلة الإمام أحمد الطيب؛ تأسس «بيت العائلة المصرية» في عام ٢٠١١م، صائراً هيئة مستقلة باسم «بيت العائلة المصرية»، برئاسة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وقداسة بابا الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ويجمع أيضاً «بيت العائلة المصرية» ممثلي الطوائف المسيحية في «مصر»، وعدداً من الخبراء والمتخصصين.

* أهداف «بيت العائلة المصرية»:

الحفاظ على النسيج الوطني الواحد لأبناء «مصر»، وله -من أجل تحقيق هذا الهدف- الاتصال والتنسيق مع جميع الهيئات والوزارات المعنية في الدولة، وتقديم مقترحاته وتوصياته إليها، وكذا عقد المؤتمرات واللقاءات في جميع محافظات «مصر»، كما جاء في «مادة رقم (١)» من وثيقة تأسيسه.

* المحاور:

- يسعى «بيت العائلة المصرية» لتحقيق المحاور التالية:
- تأكيد القيم العليا والقواسم المشتركة بين الأديان والثقافات والحضارات الإنسانية المتعددة.
 - تجديد الخطاب الديني.
 - تفعيل المخزون الحضاري الثقافي للشخصية المصرية بمكوناته التاريخية والحضارية الفريدة والتميّزة.
 - رصد واقتراح الوسائل الوقائية للحفاظ على السلام المجتمعي.

* الإدارة:

تنشأ هيئة مشتركة باسم «بيت العائلة المصرية»، برئاسة

شيخ الأزهر، وبابا الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، مقرها الرئيسي «مشيخة الأزهر بالقاهرة»؛ وحالياً يُمثّل «الأزهر» فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيّب، ويُمثّل «الكنيسة القبطية الأرثوذكسية» قداسته البابا تواضروس الثاني، بابا الإسكندرية الثامن عشر بعد المئة.

يُعيّن لـ«بيت العائلة المصرية» أمين عام، وأمين عام مساعد؛ وحالياً الأمين العام هو الأستاذ الدكتور/ محمود حمدي زقزوق؛ وزير الأوقاف الأسبق.

يتولى إدارة «بيت العائلة المصرية»:

* مجلس الأمناء:

وهم أفراد لا يقل عددهم عن ١١ ولا يزيد عن ٢٧ عضواً. ويعقد هذا المجلس اجتماعاتٍ دوريةً، ويُمكن أن يعقد اجتماعاتٍ طارئةً حسبما تتطلب الظروف، وهو الذي يضع السياسات العامة لـ«بيت العائلة المصرية» ويشرف على تنفيذها.

* المجلس التنفيذي :

ويرأسه الأمين العام، ويعاونه الأمين العام المساعد، ويختص بتنفيذ السياسة العامة لـ «بيت العائلة المصرية»، ويضم مقرري اللجان والمقررين المساعدين.

* اللجان :

لجنة الخطاب الديني :

وهدفها :

- تجديد الخطاب الديني بما يُناسب تحقيق أهداف «بيت العائلة المصرية» ورسالته وقيم المجتمع.

- تدريب الأئمة والقساوسة في مختلف محافظات الجمهورية.

- لقاءات شهرية أو ربع سنوية ليوم واحد أو عدة أيام، لترسيخ القيم في حياة الناس مثل: الرحمة، والمحبة، والتعاون، والمسؤولية، والانتماء إلى الوطن، والسماحة، والتفاني في العمل . . . إلخ.

وعلى سبيل المثال؛ بتعصيدٍ من نيافة المطران «منير حنا»، نظمت اللجنة ١٢ لقاءً على مدار ثلاث سنواتٍ للأئمة والقساوسة؛ كانت مُدَّة كلِّ لقاءٍ ثلاثة أيامٍ بعنوان: «معاً من أجل مصر»، حضرها قرابة ٧٠ من الأئمة والقساوسة في السنة الواحدة، وقد قُدمت بها محاضراتٌ وندواتٌ ومناقشاتٌ، وتدريباتٌ، وقوافلٌ مشتركةٌ لزيارة المساجد والكنائس والأديرة والمستشفيات والمدارس، وبعض مشروعاتٍ وطنيةٍ معاً، ولقاءاتٍ مع رئيسي «بيت العائلة المصرية» والرُّموز الدينيَّة، ممَّا كان له الأثر الإيجابي في تفعيل القيم المشتركة وإعادة القيم المهجورة، ويجري الإعدادُ للقاءاتٍ مشتركةٍ بين طلبة الكليات والمعاهد الأزهرية والكليات الإكليريكية.

لجنة التعليم :

- تكوينُ جماعاتٍ «أصدقاء بيت العائلة المصرية» بالمدارس والجامعات.

- مراجعة المناهج الدراسية الحالية لتلافي ما يؤثر في القيم والسلام المجتمعي.

- إعدادُ وثيقةٍ للتعليمِ وتفعيلِها، مساهمةً لفلسفةِ «بيت العائلة المصرية» وأهدافه.

- إرسالُ شيخٍ وقسٍّ لإلقاءِ كلمةٍ في طابورِ الصَّباحِ في المدارسِ الابتدائيةِ والإعداديةِ والثانويةِ في بعضِ المحافظاتِ.

- تقديمُ برامجٍ هادفةٍ لتأصيلِ روحِ المواطنةِ بينَ الطُّلابِ، بتعاونِ الإدارةِ العامةِ للتربيةِ الاجتماعيةِ والتربيةِ النفسيةِ والكشفيَّةِ والاتحاداتِ الطُّلابيَّةِ.

لجنةُ الشَّبابِ:

وهدفُها:

- غرسُ قيمِ نبذِ العُنْفِ، والتطرُّفِ، والتَّعصُّبِ بأنواعه كافَّةً.
- تنميةُ قُدْرَاتِ الشَّبابِ، واكتشافُ الموهوبينَ ورعايتُهم.
- تنظيمُ اللِّقاءاتِ والنَّدواتِ للشَّبابِ في الجامعاتِ والمعاهدِ والأنديةِ، لتنميةِ الشَّبابِ رُوحياً وثقافياً واقتصادياً.
- تنظيمُ معسكراتِ كَشْفِيَّةٍ ودُّوراتِ رياضيَّةٍ.
- تفعيلُ دَوْرِ الشَّبابِ في بناءِ الوطنِ.

لجنة الثقافة الأسرية :

ودورها :

- توعية وتنمية الأسرة المصرية اجتماعيًا وثقافيًا وفكريًا وصحيًا من خلال ندوات دورية لترسيخ دور الأسرة في بناء المجتمع، وتقديم نماذج من الأمهات المثاليات ليصرن قدوة في المجتمع.

لجنة الطوارئ التنفيذية :

ومهمتها :

- تقييم الأزمات ودراستها والمشاركة في علاجها عند حدوثها، والمساعدة في حلها.

- التوعية لتجنب الوقوع في الأزمات.

لجنة الإعلام والعلاقات العامة، المنوط بها :

- المتابعة الإعلامية الكاملة لأنشطة اللجان.

- عمل لقاءات وتقارير لنشر رسالة عن أنشطة «بيت العائلة المصرية».

لجنة المتابعة، وتعمل على :

- متابعة خُطَطِ العملِ وآلياتِ التَّنفيذِ ومعاييرِ الأداء،
وتقييمها، وتطويرها.

- الرِّصْدَ والقياسَ لمدى الالتزامِ بتحقيقِ الأهدافِ العامَّةِ
والفرعية.

- رصدِ أوجهِ القُصورِ وعملِ التَّوصياتِ.

إنَّ العملَ في «بيت العائلة المصرية» لا يتوقَّفُ، فقد
أُنشئت له فروعٌ بالمحافظاتِ، ويُدرسُ حاليًا كيفيةُ إنشاءِ
فروعٍ خارجِ مصر؛ فتجربةُ «بيت العائلة المصرية» التي تحملُ
في عمقِ رسالتها التَّصديَّ الفكريَّ للإرهابِ، وبناءِ النفسِ
الإنسانيةِ المتوازنةِ على مستوياتها كافةً؛ هي سعيٌّ نحوَ
السَّلامِ الذي ينشُدُه العالمُ بأسره؛ ولذا فهو يستحقُّ تحمُّلَ
كلِّ معاناةٍ وجهدٍ، فنحنُ لدينا دورٌ هامٌّ نحو تحقيقِ السَّلامِ
الحقيقيِّ، وهو بالفعلِ يحتاجُ إلى تفهُّمٍ وعملٍ جادٍّ حتَّى
يُمكنَ إقراره؛ كذلكِ فإنَّه يتطلَّبُ حوارًا وفهمًا عميقًا
للاَخرينَ ومحبةً قويةً لهم، كما قيل: «عندما تغلبُ قوةُ
الحبِّ على حبِّ القوةِ سيشهدُ العالمُ السَّلامَ».

إنَّ رسالة «بيت العائلة المصرية» تحملُ نشرَ السَّلامِ والتَّسامحِ التي تُعبِّرُ عنها الأديانُ. ودَعَوني أَخْتِمُ كلمتي هذه بجزءٍ من كلمة فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور / أحمد الطَّيِّب؛ شيخ الجامع الأزهر - في منتدى «تعزيز السَّلم في المجتمعات المسلمة» الذي عُقد بـ «أبو ظبي» في أبريل عام ٢٠١٥م؛ حين قال: «علاقة الإنسان المسلم بغيره، أيَّا كان هذا الغير، إنسانًا، أو حيوانًا، أو نباتًا، أو جمادًا، هي في فلسفة الإسلام علاقة زمانة وصُحبة وارتفاق، تقومُ أوَّل ما تقومُ على مبدأ السَّلام والتَّعارف»، أما بخصوص أهل الذِّمة فنجد أنَّ قواعد الإسلام قد جعلت أهمية كبيرة لمعاملتهم، ففي الحديث: «مَنْ آذَى ذِمِّيًّا فَلَيْسَ مِنَّا» العهدُ لَهُمْ، ولأبنائهم، عهدٌ أبديٌّ لا يُنقضُ، يَتَوَلَّاهُ وَلِيُّ الأَمْرِ وَيَرْعَاهُ، بل حديث آخر يقول: «استَوْضُوا بِالْقَبْطِ خَيْرًا؛ فَإِنَّ لَنَا فِيهِمْ نَسَبًا وَرَحِمًا».

أمَّا من جهة وصية عمر بن الخطاب قبل موته، فقد أوصى بحفظ العهود والمواثيق لغير المسلمين، وبعدم تكليفهم بما

لا يُطيقون؛ وهذه سماحةٌ كبيرةٌ من هذا الخليفة الذي سجَّلَ التاريخُ له صفحاتٍ من نورٍ.

لكن ؛ لعلَّ بعضًا يفقدُ تسامحه أو سلامه مع الآخرين بسببِ شيءٍ من الحماسة الدينيَّة، في حين أنَّ «سورة الغاشية» تقولُ في هذا الأمرِ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۖ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيِّرٍ ۝﴾ ، وفي «سورة المائدة»: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ ۖ﴾ [المائدة: ٩٩] ، والإنسان يُبلِّغُ الآخرين رسالة الحقِّ ، وفي «سورة يونس»: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ۖ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ ، وفي «سورة البقرة»: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ﴾ [آية ٢٥٦] ؛ كلُّ هذا يدلُّ على روح السَّماحة التي علَّمَ «الإسلام» النَّاسَ إيَّاها في معاملته الآخرين ، خاصَّةً مَنْ يختلفون معهم في المذهبِ أو الدِّينِ .

ليوفِّقنا الله إلى ما فيه خيرُ الإنسانيَّةِ جمعاء .



الجلسة الثالثة

دور الأديان في

تعزيز المواطنة والعيش المشترك

وترسيخ مبادئ الإنسانية

دَوْرُ الدِّينِ فِي تَرْسِيخِ الْأَخْلَاقِ وَالْقِيَمِ وَالْمَبَادِئِ الْإِنْسَانِيَّةِ

محمد قريش شهاب^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.
أَيُّهَا السَّادَةُ:

سأبدأ الحديث عن موضوعنا «دَوْرُ الدِّينِ فِي تَرْسِيخِ الْأَخْلَاقِ
وَالْقِيَمِ وَالْمَبَادِئِ الْإِنْسَانِيَّةِ» بتصوير معنى الدين، مستمداً من لفظه
العربي المكوّن من حروف الدّال والياء والنون.

يقول علماء اللغة: إِنَّ الْأَلْفَاظَ الَّتِي تَكُونَتْ مِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ
الْحُرُوفِ لَهَا عَدَّةٌ مَعَانٍ، مِنْ بَيْنِهَا: الطَّاعَةُ وَالْخُضُوعُ وَالْعِبَادَةُ
وَالْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ وَالتَّصْدِيقُ وَالْاعْتِرَافُ بِالْفَضْلِ وَالْقَرْضُ
بِأَجَلٍ . . . هَذِهِ الْمَعَانِي وَغَيْرُهَا يَرْبِطُهَا جَمِيعًا رَابِطٌ وَاحِدٌ

(١) عضو مجلس حكماء المسلمين، ووزير الشؤون الدينية بإندونيسيا الأسبق.

وهو علاقة ما بين جهتين، إحداهما أعلى منزلة من الأخرى .
ومن هنا نستوحي من هذا الرابط حقيقةً جليّة وهي : لا
دين لمن لا علاقة له ، علاقة بين طرفين . . . علاقة الخضوع
والطاعة من الجهة الأدنى للأعلى ، وهذا ناتج من الخوف أو
الرجاء أو الاحترام والاعتراف بالفضل ، هذا هو تصوُّري
لأبسط ما في الدين من معنى بما فيه الدين الذي يُطلق على
مجموعة من الأفكار والعقائد التي توضّح بحسب معتنيها
الغاية من الحياة ؛ ولذلك شاعت العبارة القائلة : «الدين
المعاملة» يعني بقدر حسن المعاملة يكون حسن التدّين ، فمن
تلك العلاقة تستمدُّ الأخلاقُ حسنَها وقوتَها ؛ ولذلك كلّما
كان التدّينُ راسخًا كانت الأخلاقُ كريمةً والعكسُ صحيحٌ ،
وتتجلى تلك العلاقة بصورة بارزة في الصّلاة التي لا يخلو
أيُّ دينٍ منها .

وفي هذا الصّدد يقول الفيلسوف الأمريكي وليام جيمس :
«يترجّح لدينا أنّ النَّاسَ سيظلُّون يُصلُّون إلى آخر الزّمان ،
بالرّغم ممّا يأتي به العلم من عكس ذلك» .

أَيُّهَا السَّادَةُ: تعلمونَ أَنَّ الرَّأْيَ السَّائِدَ فِي نَشْأَةِ الدِّينِ هُوَ الْخَوْفُ وَالْقَلَقُ الَّذِي يَتَمَخَّضُ مِنْهُمَا سَعْيُ الْإِنْسَانِ لِلْبَحْثِ عَنْ مَصْدَرِ الْأَمَانِ وَالسَّلَامِ -والذي يتولَّدُ مِنْهُ بِدَوْرِهِ الْإِعْتِقَادُ بِاللَّهِ وَحُضُورُ الْوَصَايَا الدَّاعِيَةِ إِلَى الْفَضَائِلِ وَالتَّضَحِّيَةِ - وَأَقُولُ: إِنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَاكَ، إِلَّا أَنَّ الْبَاعْثَ الْأَعْمَقَ لِنَشْأَةِ الدِّينِ هُوَ النَّفْخَةُ الَّتِي نَفَخَهَا اللَّهُ فِي الْإِنْسَانِ عِنْدَ خَلْقِهِ، وَالَّذِي بِهَا يَتَمَتَّعُ بِالْعَقْلِ وَالرُّوحِ . . . عَقْلٌ يَفْكُرُ وَيَتَأَمَّلُ . . . يَنْظُرُ وَيَتَدَبَّرُ غَاصًّا فِي الْكَوْنِ الرَّحِيبِ فَوَجَدَ نِظَامًا رَائِعًا وَتَدْبِيرًا مُحْكَمًا وَقُدْرَةً بَالِغَةً لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ إِلَهٍ قَادِرٍ حَكِيمٍ عَلِيمٍ . . . بِجَانِبِ هَذَا الْعَقْلِ رُوحٌ تَسْعَى إِلَى الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْعُودَةِ إِلَى مَوْطِنِهِ وَمَصْدَرِ وَجُودِهِ، فَرُوحُ الْإِنْسَانِ مِنْذُ أَنْ وَطَأَ بِقَدَمِهِ الْأَرْضَ تَتَمَنَّى الْعُودَةَ، فَالرُّوحُ كَمَا يَصِفُهَا جَلَالُ الدِّينِ الرَّومِيُّ: لَا تَزَالُ تَبْنِي أَنْيْنَ النَّائِي مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ شَوْقًا إِلَى غَايَتِهِ .

أَيُّهَا السَّادَةُ:

إِنَّ الْأَدْيَانَ السَّمَاوِيَّةَ تَوْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مَزُودًا بِالْفِطْرَةِ، وَالْمَرَادُ بِهَا الْإِعْتِقَادُ بِوُجُودِ الْإِلَهِ الْخَالِقِ الْمَدْبِرِ،

يشير كتاب الإسلام إلى تلك الحقيقة بقوله: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ الْقِيَمُ﴾ [الرُّوم: ٣٠]. نعم . . . قد يخبر هذا الاعتقاد أو يضعف ولكنه لا يتلاشى ولا ينطفئ أبداً . .

إن الإنسانية تشعر بوجود تلکم القوة أيًا كان الاسم الذي اختاره لها؛ ولذلك يقول بعض الفلاسفة: «قد نجد في الماضي أو الحاضر مجتمعات بشرية لا تعرف العلم أو الفن أو الفلسفة، ولكن ليس ثمة مجتمع بلا دين».

ومن منظور الدين الإسلامي إنما كان الأمر كذلك؛ لأنَّ الله زوّد الإنسان منذ نشأته بتلك الفطرة، زوّده بها عند خلقه وقبل هبوطه إلى الأرض، ثمَّ وعده بالهدى حين هبوطه، وإنه كما قال: ﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ هُدًى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٣٨]. يقول البعض: إنَّ الهدى الموعود أتى إلى الإنسان عندما وجَّهه الله إلى اكتشاف بعض الحق والخير والجمال، ومنذ ذلك الحين وهو يسعى جاداً للالتقاء بالحق والخير والجمال الكامل وهو

اللَّهُ تعالى متذكراً ما كانت له من سعادةٍ ونعيمٍ عندما كان قريباً منه قبل هبوطه إلى الأرض . . . فالدينُ إذاً وضعُ إلهيٍّ يوجهُ الإنسانَ إلى إيجادِ الحقِّ والخيرِ والجمالِ على وجهِ البسيطةِ، وبذلك نقولُ إنَّ دورَ الإنسانِ في الأرضِ هو السَّعيُّ لإحضارِ ظلالِ الجنةِ التي كان أبو البشرِ وزوجُه يعيشانِ فيها في سلامٍ وأمنٍ، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۖ ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة] . . . موفورَ الحاجاتِ الصَّروريةِ من طعامٍ وشرابٍ وسكنٍ ولباسٍ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۖ ﴿٢٧﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۖ ﴿٢٨﴾﴾ [طه].

أيُّها السَّادةُ: إنَّ البحثَ عن الحقِّ يُثْمِرُ العِلْمَ والمعرفةَ، وبالخيرِ تحصلُ الفضيلةُ والأخلاقُ الكريمةُ، وبالجمالِ يأتي الفنُّ والإبداعُ، تلك هي عناصرُ الحضارةِ التي كلَّفَ اللهُ عبادهَ ليقِيمَها في الأرضِ، على أن تكونَ ممزوجةً بالروحِ الإلهيةِ؛ لأنَّ الحضارةَ القائمةَ بلا رُوحٍ وإنِ استكملت تلك العناصرَ لا تستطيعُ أن تمنَحَ البشريةَ مُناها؛ من إبعادِ الخوفِ والقلقِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ: إِنَّ لِلدِّينِ دَعَامَتَيْنِ أَسَاسِيَتَيْنِ :

(١) الخَوْفُ بِلِ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَعْنِي بِالْخَشْيَةِ الْخَوْفَ
مَعَ التَّعْظِيمِ وَالْإِعْجَابِ بَعْدَ مَعْرِفَةِ الْمُخْشِيِّ الْمُؤَدِّي إِلَى
الطَّاعَةِ وَالْانْقِيَادِ بِلِ الشَّوْقِ إِلَيْهِ .

(٢) الْاسْتِخْلَافُ فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ يَعْنِي الْقِيَامَ بِالْمَحَافَظَةِ
عَلَى صَلَاحِهِ وَإِصْلَاحِهِ ، مَعَ الْأَخْذِ بِيَدِ مَنْ وَمَا فِي الْأَرْضِ
لِيَصِلَ إِلَى الْهَدَفِ الَّذِي خُلِقَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَهَذَا بِاخْتِصَارٍ هُوَ
بِنَاءُ الْحَضَارَةِ بِالتَّنْمِيَةِ وَالنَّهْضَةِ . . . وَالْأَمْرَانِ الْخَوْفُ أَوْ
الْخَشْيَةُ وَالْاسْتِخْلَافُ لَا يَنْفَكَاَنِ عَنِ الْأَخْلَاقِ .

وَالْآنَ يَأْتِي السُّؤَالُ : مَاذَا يَسْتَطِيعُ الدِّينُ أَنْ يَقْدِمَ لِلْإِنْسَانِ
وَمَجْتَمَعِهِ وَكَيْفَ يَقُومُ بِدَوْرِهِ؟ لَعَلَّ الْجَابَةَ الْأَقْرَبَ إِلَى
الصَّوَابِ هِيَ : السَّعْيُ الدَّعْوُوبُ لِتَزْوِيدِ الْفَرْدِ وَمَجْتَمَعِهِ بِطَاقَةِ
إِيجَابِيَّةٍ تُمَكِّنُهُمْ مِنَ الْعَيْشِ بِمَسْتَوَى إِنْسَانِيٍّ وَأَخْلَاقِيٍّ لَائِقٍ ،
وَتَحْوِيلُهُمْ عَنِ الْانْحِرَافِ ، عَلَمًا بِأَنَّ تِلْكَ الطَّاقَةَ لَا تَوْجَدُ إِلَّا
عِنْدَ اللَّهِ ؛ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، فَمِنْهُ نَسْتَمِدُّ الْقُوَّةَ
وَالطَّاقَةَ ، فَلَا غُرُوبَ إِذَا إِذَا كَانَ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ - وَأَرْجُو أَلَّا

أَحِيدَ عَنِ كَبِدِ الصَّوَابِ إِذَا قُلْتُ -الْأَدْيَانُ السَّمَاوِيَّةُ- يَطَالُبُ
الْإِنْسَانَ أَنْ يَرْبِطَ أَعْمَالَهُ بِذَلِكَ الْوُجُودِ الْمَطْلُوقِ، مُتَّصِلَ الْفِكْرِ
وَالْقَلْبِ بِذَلِكَ الْوُجُودِ الْكَامِلِ، وَيَجْعَلَ أَسْمَاءَهُ الْحَسَنَى قُدْوَةً
وَمُقْيَاً لِأَخْلَاقِهِ، فَكُلُّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتَرَسَّمُهَا
الْمُتَدِينُ، وَيَلْمُ بِهَا مَعْرِفَةً قَدَرَ الْإِسْتِطَاعَةَ ثُمَّ يَتَخَلَّقُ بِهَا قَدَرَ
الطَّاقَةِ

أَيُّهَا السَّادَةُ: إِنَّ الْعِبَارَةَ الْمَكْتُوبَةَ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَكَذَا
فِي بَعْضِ كُتُبِ أَحَادِيثِ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ: وَهِيَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ
آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» تُشِيرُ إِلَى تَكْرِيمِ الْإِنْسَانِ وَأَنَّ اللَّهَ أَوْدَعَ فِيهِ
قَبَسَاتٍ مِنْ صِفَاتِهِ تُمَكِّنُهُ مِنَ التَّشَبُّهِ بِاللَّهِ وَالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ قَدَرَ
الطَّاقَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَأَنَّهُ بِهَذَا جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةَ اللَّهِ فِي
الْأَرْضِ.

إِنَّ التَّخَلُّقَ بِأَخْلَاقِ اللَّهِ هُوَ صَفْوَةُ الدِّينِ وَلُبُّهُ، بَلْ هُوَ التَّدِينُ
الْحَقِيقِيُّ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ: إِنَّ مَنْ أَقْدَمَ التَّعْرِيفَاتِ عَنِ الدِّينِ
وَالْتَّدِينِ هُوَ مَا نُسِبَ إِلَى الْفِيلَسُوفِ الرُّومَانِيِّ سِينِيكََا، الْمَوْلُودِ
فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ قَبْلَ الْمِيلَادِ- الْقَائِلِ بِ «أَنَّ الدِّينَ هُوَ التَّشَبُّهُ

بأخلاقِ الإله»، أو على رأي الفيلسوف هكسلي Aldous Huxley: «الدِّينُ هو إجلالُ المثلِ العُلَيَّا منَ الأخلاقِ ومحَبَّةِ العملِ على تحقيقِها»، وما أوامِرُ اللَّهِ ووصايا الأنبياء والرسل إِلَّا أخلاقُ كريمةٌ، ما الوصايا العشرُ إِلَّا ناموسُ الأخلاقِ . . . والمسيحُ عليه السَّلامُ عندما أكَّدها ولخَّصها في حُكْمينِ إِنَّمَا يُؤكِّدُ وجوبَ الأخلاقِ معَ اللَّهِ ومعَ النَّاسِ . . . ثُمَّ كَمَ مِنْ وصايا للنبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ما يُؤكِّدُ ذلكَ، يكفينَا قولُهُ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»، أخلاقُ كريمةٌ تشمَلُ الوجودَ كُلَّهُ خالقًا ومخلوقًا.

وقد وَصَفَ حَكِيمُ الْعَرَبِ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ أَكْثَمَ بَنٍ صِيفِي مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ بِأَنَّهُ: لو لم يَكُنْ دِينًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَكَانَ فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ حَسَنًا، وعندما حَضَرَ جَمْعٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَبَشَةِ رَاغِبِينَ فِي حِمَايَةِ مَلِكِهَا النُّجَاشِيِّ لَمْ يَكُنْ تَعْرِيفُ الْإِسْلَامِ مِنْ قِبَلِ سَيِّدِنَا جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -عِنْدَمَا طُوبِلَ بِتَعْرِيفِهِ- إِلَّا الْأَخْلَاقُ، قَالَ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرِسَالَتِهِ بِأَنَّهُ: «دَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِّدَهُ وَنُعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا

نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحَجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا
بِصَدَقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ
الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ
الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ
الْمَحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نَشْرُكَ بِهِ شَيْئًا،
وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ»، وَمَا إِنْ سَمِعَ الْمَلِكُ
النَّجَاشِيَّ إِلَّا وَقَالَ: «إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عَيْسَى يَخْرُجُ مِنْ
مَشْكَاءٍ وَاحِدَةٍ».

أَيُّهَا السَّادَةُ: مَا أُرِيدُ مِنْ سَرْدِي الَّذِي تَقَدَّمَ إِلَّا رَغْبَةً فِي
تَأْكِيدِ بَعْضِ الْأُمُورِ الْآتِيَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمَوْضُوعِ الَّذِي نَحْنُ
بِصَدِّدِهِ:

أولاً: بما أَنَّ الدِّينَ أَوْ لُبَّهُ هُوَ الْأَخْلَاقُ النَّاتِجَةُ مِنْ
مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ، فَمَنْ الْوَاجِبُ - مِنْ أَجْلِ تَرْسِيخِ
الْأَخْلَاقِ - تَأْكِيدُ السَّعْيِ لِلتَّعْرِيفِ بِاللَّهِ وَبِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى
تَعْرِيفًا يَحْبِبُ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ وَالتَّخَلُّقَ بِأَخْلَاقِهِ حَسَبَ طَاقَةِ كُلِّ
فَرْدٍ، إِنَّ الْحَبَّ الْحَقِيقِيَّ لَا يَأْتِي مِنْ فَرَاغٍ . . . إِنَّهُ لَا

يَسْتَكِنُّ فِي النَّفْسِ إِلَّا بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ، وَيَا أَسْفَى كَم مِنْ أَعْضَاءِ الْمَجْتَمَعِ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْإِلَهَ أَوْ عَرَفَهُ عَلَى غَيْرِ صِفَاتِهِ، بَلْ كَم مِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ اللَّهَ قَدْ مَاتَ أَوْ مَا كَانَ لَهُ وَجُودٌ إِلَّا فِي خِيَالِ الْبِدَائِيِّينَ أَوِ الْجَهْلَةِ الْمَغْرُورِينَ . . . ثُمَّ كَم مِنْ مُتَحَدِّثٍ وَنَاشِطٍ بِاسْمِ الدِّينِ الَّذِي يَبَالُغُ فِي التَّخْوِيفِ الْمُؤَدِّي إِلَى التَّنْفِيرِ بَلْ يَشِيرُ الْكَرَاهِيَةَ لِلدِّينِ .

أَيُّهَا السَّادَةُ! بِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ أَقُولُ: إِنَّ مِنْ أَوْجِبِ الْوَاجِبَاتِ عَلَى كُلِّ ذِي دِينٍ أَوْ دَارِسٍ لِلدِّينِ -وإنْ لَمْ يَكُنْ دِينَهُ - أَنْ يَنْفِيَ مَا يُلْصِقُ بِأَيِّ دِينٍ مِنْ فِكْرَةٍ أَوْ أَعْمَالٍ تَتَعَارَضُ مَعَ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ كَالْعَنْفِ وَالْإِرْهَابِ، وَكُلِّ مَا لَا يَتِمَاشَى مَعَ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى .

وَفِي اعْتِقَادِي أَنَّ هُنَاكَ مَجَالَاتٍ وَاسِعَةً وَمُهَيَّأَةً لِلتَّعَاوُنِ بَيْنَ رِجَالِ الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَةِ فِي مَجَالِ إِثْبَاتِ وَجُودِ اللَّهِ بِالْحُجَجِ الْمَسَايِرَةِ لِلْعَصْرِ، وَالتَّعْرِيفِ بِصِفَاتِ اللَّهِ الْحُسْنَى الْمُرَغَّبَةِ فِي التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَالْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ اخْتِلَافِ مَعْتَقِدِي الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَةِ فِي

وصف ذاته تعالى إلاً أنهم مُتَّفِقُونَ في كثيرٍ من صفاته : فهو ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣] ، والله بصفته «الجبار» يَجْبُرُ الكسيرَ ويعطي الفقيرَ ، يرأبُ الصدعَ ويلمُ الشملَ ، وهو إنما يتكبرُ على مَنْ نازعه في كبريائه إنَّ التأكيدَ بمعاني هذه الصفاتِ وأمثالها لكفيلٌ في المساهمة في ترسيخ الأخلاقِ الكريمة والقيم النبيلة .

ثانيًا : بما أنَّ الدينَ هو الأخلاقُ أو أنَّ الأخلاقَ لُبه ، فلا يصحُّ الفصلُ بينَ عقيدته -وهي الأصولُ الفكريةُ التي يجبُ اعتقادُها- وشريعته -وأعني بها مجموعة الأحكام والقوانين التي شرعها الله لتوجيه السلوك العملي- لا يصحُّ فصلُهما عن الأخلاق -سواءً في الفصلِ الدراسيِّ عندَ تدريسِ آية مَادَّةٍ علمية كانت أو دينية- أو في موقعِ عملِ الفردِ في المجتمع ، وإنَّما كان الدينُ هو الأخلاقُ ؛ لأنَّ الصلاةَ ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٥] ، وفي الزكاةِ

وَالصَّدَقَةِ يَوْصِي تَعَالَى : ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾
 [البَقَرَةُ : الآيَةُ ٢٦٤] . . . وَفِي الصَّوْمِ يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ : «مَنْ
 لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ
 طَعَامَهُ وَشِرَابَهُ» .

وهذا يَتَطَلَّبُ - فِي مَجَالِ التَّربِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ إِعَادَةَ النَّظَرِ فِي
 مَنَاهِجِ وَمَوَادِّ التَّعْلِيمِ ، بِالإِضَافَةِ إِلَى إِعْدَادِ وَتَزْوِيدِ كُلِّ مَنْ لَهُ
 صِلَةٌ - قَرِيبًا كَانَ أَمْ بَعِيدًا - بِالْمِهْمَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ ، فِي
 الْمَوْسَّسَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ مِثْلًا لَا يَقْتَصِرُ مِهْمَةُ تَدْرِيسِ الْأَخْلَاقِ
 عَلَى مَدْرَسِي الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ ، وَلَكِنْ عَلَى الْمَدْرَسِينَ فِي
 شَتَّى الْعُلُومِ ، فِي ثَنَائِهَا شُرُوحَهُمْ لِمَادَّةِ الدَّرْسِ أَوْ عَلَى أَقَلِّ
 تَقْدِيرٍ بِالْقُدْوَةِ الْحَسَنَةِ ؛ فَإِنَّ الْقُدْوَةَ نَوْعٌ مِنَ التَّدْرِيسِ
 وَالتَّلَقُّي . . . وَإِذَا قُلْنَا : الْقُدْوَةُ الْحَسَنَةُ فَلَا نُطَالِبُ بِكَمَالِهَا
 وَأَحْسَنِهَا ، فَهُوَ أَمْرٌ عَسِيرٌ يَعِزُّ وَجُودُهُ حَالِيًا ، وَكُلُّنَا مَعْرَضُونَ
 لِلخَطِئِ وَالخَطِيئَةِ ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَابُونَ ، إِنَّ نَجَاحَ
 الْمَوْسَّسَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ لَا يُقَاسُ فَحَسَبَ عَلَى الْمُسْتَوَى الْعِلْمِيِّ
 الرَّفِيعِ الَّذِي تَتِمَّعُ بِهِ هَيْئَةُ التَّدْرِيسِ وَلَا عَلَى قُدْرَةِ الطَّلَبَةِ فِي

فهم واستيعاب العلوم المدروسة، ولكن يُقاسُ أيضًا بأخلاق كلِّ واحدٍ ممَّن له دورٌ في المؤسسة التعليمية، إداريين ومدرِّسين وموظَّفين وطلَّابٍ.

ثالثًا: إنَّ الأسرةَ هي الوحدةُ الاجتماعيةُ الأولى التي تقابلُ الإنسانَ، وهي المسئولةُ الأولى في غرسِ الأخلاقِ الكريمةِ، ومن هنا يجبُ الاهتمامُ بالأسرةِ وللَّذين هنا دورٌ كبيرٌ في تثقيفِ المُقبلينَ على الزواجِ في مسؤولياتِ ووظائفِ الأبوينِ التي لا تقتصرُ على التناسلِ والحبِّ المتبادلِ -أو بأصحِّ تعبيرٍ- في تنميةِ المودَّةِ والرَّحمةِ، ولكن بالإضافةِ إلى هاتينِ هنالكِ وظائفُ أُسرِيَّةٌ لا تقلُّ أهميَّةً عنهما تتمثَّلُ في وظائفِ دينيةٍ وتعليميةٍ وثقافيةٍ واقتصاديةٍ، بالإضافةِ إلى قدرةِ التربيةِ بالقُدوةِ الحسنةِ، علَّمًا بأنَّ الطِّفلَ يستفيدُ بنظرِه أكثرَ بكثيرٍ من سَمعِه، أريدُ أن أخصَّ بأنه يتحمَّ على المُقبلينَ على الزواجِ استيفاءً شروطٍ محدَّدةٍ -بما فيها السنُّ المناسبُ- لهما.

رابعًا: يقالُ: إنَّ المجتمعَ الإنسانيَّ حاليًا يغتسلُ من

نُبعين (دُشِّين) متناقضين أحدهما نظيفٌ طاهرٌ والآخر نجسٌ قذرٌ، ويا لجسامة المشكلة؛ لأنَّ الماءَ النظيفَ ينزلُ قطرةً بعدَ قطرةٍ، وأمَّا القذرُ فينصبُّ غزيرًا مخلوطًا بالمسكِ المسمومِ.

يتجلَّى هذا التشبيهُ بالمقارنةِ بينَ نشاطِ المصلحين وبينَ ما قدَّمته وتقدَّمه كثيرٌ من وسائلِ الإعلامِ المكتوبةِ والمسموعةِ والمرئية؛ انظروا كم نسبةُ المسلسلاتِ والأفلامِ السينمائيةِ المعروضةِ التي لا تتماشى مع الأخلاقِ الكريمة - كم نسبتُها إذا قُورنت بغيرها؟ كم من أخبارٍ سوءٍ تُنشرُ إذا قارنَّاها بالأخبارِ الطَّيبةِ؟ كلُّ ذلكِ بدعمٍ ماليٍّ كبيرٍ وتكنولوجياٍ حديثٍ وفلسفةٍ نشرٍ مبنيةٍ على الباطلِ، ومن أجلِ كسبِ الأموالِ على حسابِ الأخلاقِ، وممَّا زاد الطَّينَ بلةً أنَّ نشاطَ المصلحين أغلبيتهُ في صورةِ خطبٍ ناريةٍ ونقدٍ لاذعٍ في غيرِ محلِّه أو وقته، وبعضُها توجيهاً لا تتناسبُ مع حاجاتِ المجتمعِ أو عقليَّاته، وهي فقيرةٌ من الأدلَّةِ العلميةِ بينما الجانبُ الآخرُ يقدِّمُ بضاعتهم بوسائلٍ شتى مكسوةٍ بكساءٍ يجذبُ ضعافَ النفوسِ.

إِنَّ الواجبَ على وسائلِ الأعلامِ -حتى لو فرضنا أن ما تنشره من أخبارٍ ومناظرٍ مُخَلَّةٍ واقعٌ بالفعلِ، حتى لو فرضنا أن الأمرَ كذلك- ما كانت دينياً ولا أخلاقياً لتشره، وإذا كان لا بُدَّ من نشره أو عرضه فليكن بدونِ إغراءٍ لتقليدها أو التصفيقِ لها، وتكونُ بيانِ عاقبتهِ الوخيمةِ.

إِنَّ كثرةَ نشرِ السليباتِ تُغري ضعافَ العقولِ والنفوسِ، فما بالكم بالبراعمِ الصاعدةِ وقديماً كان ابنُ المقفعِ يقولُ: إذا قلَّ المعروفُ صارَ منكراً، وإذا شاعَ المنكرُ صارَ معروفاً.

إِنَّ تكرارَ الشيءِ المبهِّرِ يكْمشُ الإعجابَ به شيئاً بعدَ شيءٍ، وكثرةُ رؤيةٍ أو سماعِ القبيحِ يقلِّصُ الاشمئزازَ والنفورَ منه ويشجِّعُ على تقليده، ومن هذا الواقعِ المؤسفِ يتحتمُ علينا جميعاً -كرجالِ دينٍ- أن نحاولَ سدَّ أبوابِ انتشارِ الفسادِ، فما من دينٍ إلَّا ويؤكدُ بأنَّ اللهَ لا يحبُّ الفسادَ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩] . . . وإذا كنَّا عاجزينَ في مواجهةِ هذا الوضعِ بالقضاءِ عليه فلا أقلَّ من إقامةِ حاجزٍ يمنعُ من زيادةِ تفشيهِ، حاجزٍ يشبهُ العازلَ للتيارِ الكهربائيِّ . . .

وَأَتَصَوَّرُ أَنْ يَقُومَ بِدَوْرِ الْعَازِلِ عَلَى الْأَقْلِ جِهَتَانِ :

(١) مَجْمُوعَةٌ مِّنَ الشَّبَابِ الْوَاعِينَ وَالْفَاهِمِينَ جَيِّدًا لِّدِينِهِمْ ، يَنْدَمِجُ مَعَ غَيْرِهِمْ فِي الْجَامِعَاتِ وَالْمَعَاهِدِ فِي أَنْشِطَةٍ إِيْجَابِيَّةٍ وَمُنَاقَشَاتٍ عِلْمِيَّةٍ وَثَقَافِيَّةٍ وَرِيَاضِيَّةٍ بِهَدَفِ الْحِيلُولَةِ دُونَ تَلَوُّثِ الْأَصْحَاءِ .

(٢) الْحُكُومَةُ وَأَصْحَابُ السُّلْطَاتِ ؛ فَإِنَّ لَهُمْ مِّنَ السُّلْطَةِ وَالصَّلَاحِيَّةِ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَتَقْنِينِ الْقَوَانِينِ ، بَلْ لَهُمْ مِّنَ الْقُوَّةِ مَا لَمْ تَكُنْ لِّغَيْرِهِمْ . . . إِنْ لَمْ تَكُنْ مِشَارَكَائِهِمْ نَابِعَةً مِّنْ وَازِعٍ دِينِيٍّ فَلتَكُنْ مِنْ كَوْنِهِمْ مَسْئُولِينَ عَنْ حِفْظِ كِيَانِ الْأُمَّةِ مِنَ الْإِنْقِرَاضِ وَالْفَنَاءِ .

إِنَّمَا الْأَمُّ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ

فَإِنْ هُمُومَا ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

نَعَمْ ، قَدْ يَقُولُ الْبَعْضُ : لَمْ يُعَدِ الْعَازِلُ نَافِعًا ، فَقَدْ تَحَطَّمتِ الْحَوَاجِزُ وَانْدَقَّتِ الْحِصُونُ بِالْعَوْلَمَةِ ، وَدَخَلَتِ الشُّرُورُ بِأَنْوَاعِهَا مُضَاجِعَنَا ، مَتَى وَكَيْفَ شَاءَ ، فَمَا الْحُلُّ ؟ لَعَلَّ أَحَدَ الْحُلُولِ هُوَ الْإِسْتِفَادَةُ مِنْ تِلْكَ الشُّرُورِ كَاسْتِفَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ

وجودِ الشيطانِ . . . فلولا الشيطانُ ما عرفنا الفضيلةَ . . .
لولا المرضُ ما عرفنا قيمةَ الصحةِ، إذا فلنواجهُ الشرَّ أينما كان
بكشفِ قناعه والتحذيرِ من مغبّةِ اتّباعه .

خامساً : إنّ الإنسانيةَ وحدةٌ واحدةٌ تركبُ سفينةً واحدةً،
والقرآنُ يَصوِّرُ تلكَ الوحدةَ بقوله : ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى
بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] ، وعلى هذا الأساسِ يجبُ المحافظةُ
على السفينةِ حتى لا تغرقَ أو تتجّهَ إلى غايةٍ غيرِ غايَتِها .

أيّها السّادة! بوحى من الأديانِ واسترشادٍ بالعقولِ
السليمةِ سُجِّلَت مبادئٌ وحقوقٌ للإنسانِ التي من شأنها أن
تُحقّقَ للإنسانِ إنسانيّتهُ وتوجّهَ أنشطتهم إلى دائرةِ الحقِّ
والخيرِ والجمالِ، متجنبًا عمّا يُخلُّ بوجوده ككائنٍ عاقلٍ
مُستخلفٍ في الأرضِ ومسئولٍ عن سلامته . . . فإذا كان
الأمرُ كذلك فلا يصحُّ دينيًا وأخلاقيًا إلا التأكيدُ بأهميةِ تلك
المبادئِ والعملِ بموجبها . . . إلّا أنّه تأكيدًا لدورِ الدينِ في

ترسيخ الأخلاق والمبادئ الإنسانية يجب أن نتعاون في الحيلولة دون اتخاذ تلك المبادئ والحقوق ذريعة للظلم والاستبداد، كما يجب المعارضة بشدة على تفسير تلك المبادئ بتفاسير تتعارض مع إنسانية الإنسان، أو يتخذ من نقاطها الرئيسية فروعا تسلخ إنسانية الإنسان وتفقد روحانيته، إنَّ الإنسان مكوّن من امتزاج الروح والجسد على مقدار مناسب، إنّه كالماء لا يكون ماءً إلا إذا امتزج الأكسجين بالهيدروجين على مقدار معيّن.

أيُّها السّادة . . . بالله عليكم هل يصحّ أن يمتدّ من حقّ الحرية وحرية التعبير حرية النّيل بالسوء من المقدّسات الدينية وشخصياتها؟ وهل يستقيم عقلاً أن يترتّب من حقّ الرّجل والمرأة في التزوُّج متى بلغا سنّ الزواج، أن يمتدّ ذلك الحقّ إلى حدّ إباحة الزواج بين الجنس الواحد؟

أيُّها السّادة! كما كان الإسهام في تأسيس المبادئ الإنسانية وحقوقها من أهمّ إنجازات الدّين سابقاً فكذلك ترسيخها وحمايتها من أيّ اعتداء من أهمّ واجبات حماة الدّين والأخلاق.

إِنَّ تَرْسِيخَ الْأَخْلَاقِ وَالْقِيَمِ يَبْدَأُ بِتَطْهِيرِ الْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ
مِمَّا عُلِقَ بِهِمَا مِنْ دَرَنٍ لَيْسَتْ جَيِّبَ مِنْ جَدِيدٍ لِنْدَائِهِمَا كَمَا كَانَ
سَابِقًا، فَالْتَخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ، وَإِفْرَاقُ مَا فِي الْجُعْبَةِ مِنَ
الْأَخْطَاءِ شَرْطٌ لَشَحْنِهَا بِالْفَضَائِلِ.

سادسًا: إِنَّ التَّنْمِيَةَ إِحْدَى الْمَهَامِّ الْمُلْقَاةِ عَلَى الْإِنْسَانِ،
وَإِنَّ الْفَقْرَ مِنْ أَسْبَابِ تَدَهُّورِ الْأَخْلَاقِ، حَتَّى قِيلَ: كَادَ الْفَقْرُ
أَنْ يَكُونَ كَفْرًا، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَهَمِّ أَدْوَارِ الدِّينِ تَقْدِيمُ
الْحُلُولِ الْعَمَلِيَّةِ لِمُكَافَحَةِ الْفَقْرِ، وَلَا أَقْصَدُ بِهَا مُضَاعَفَةُ
الْحَثِّ عَلَى بَذْلِ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ، وَلَكِنْ بِالتَّنْمِيَةِ وَالنَّهْضَةِ
الْاِقْتِسَادِيَّةِ، بِالْحَثِّ عَلَى الْعَمَلِ الدَّوِّبِ فِي حُدُودِ مَا حَدَّدَهُ
اللَّهُ ثُمَّ بِالْقَنَاعَةِ بِنَتَائِجِ الْعَمَلِ مَعَ الشُّكْرِ لِلَّهِ؛ «فَلَيْسَ الْغِنَى
بِكَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ».

هَذَا يَقْفِزُ إِلَى الْأَذْهَانِ مِنْ جَدِيدِ فِكْرَةِ التَّشْبِيهِ بِأَخْلَاقِ
اللَّهِ... فَمِنْ صِفَاتِهِ «الْغِنَى» وَمَعْنَى غِنَاهُ تَعَالَى هُوَ عَدَمُ
اِحْتِيَاجِهِ إِلَى شَيْءٍ، بَلْ هُوَ الْمُعْطَى لِمَا يَحْتَاجُهُ الْوُجُودُ كُلُّهُ،
وَعَلَى ذَلِكَ فَكُلُّ مَنْ قَلَّ شَعُورُهُ بِالْحَاجَةِ كَثُرَتْ عَطَايَاهُ
لِلْمُحْتَاجِينَ كَانَ غَنِيًّا، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْقَنَاعَةِ: وَهُوَ عَمَلٌ

دعوتٌ للحصولِ على الكثيرِ ثم بذلِ العطاءِ للمحتاجينِ إثارةً
على أنفسهم

أيُّها السَّادَةُ: أخيراً على الرَّغْمِ من صعوبةِ الموقفِ بما لا
يحتاجُ إلى بيانٍ، إلَّا أنَّنا لا نفقدُ الأملَ، لأنَّنا نسمَعُ ونقرأُ
حالياً - عن غيرِ قليلٍ منَ المفكرينَ - من يُنذِرُ بفناءِ الإنسانيةِ،
إذا استمرَّ الوضعُ على ما هو عليه، مع أنَّ هؤلاء ليسوا من
المتخصِّصينَ في علومِ الدينِ أو العاملينَ في حقِّه،
وبالإضافةِ إلى ما قلناه نشاهدُ كمَّا ممَّن اتَّخَمَتْهُمُ الماديةُ
يشكو من فقدانِ الراحةِ والاطمئنانِ فراحَ بعضهم يَلْتَمِسُ
الراحةَ إلى الموسيقى والآخِرُ إلى السياحةِ، وآخرونَ إلى
اللامعقولِ، كلُّ يبحُثُ عن ضالَّتهِ، وكلُّها أماراتُ الاستعدادِ
للعودةِ إلى الدينِ واستجابةِ مطالبِ الإنسانيةِ، أيُّها السَّادَةُ،
فلتلقَّفْ ذلكَ واللَّهِ المستعانُ وعليه التُّكلانُ.

وفي النِّهايةِ أوْكدُ لكم أن بحثي لا يقدِّمُ جديداً، ولكنه
تذكيرٌ لِنَفْسِي وللناسِ.

والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُهُ.

دور الأديان في تعزيز المواطنة

وترسيخ المبادئ الإنسانية

السيد علي الأمين^(١)

إنَّ الوجودَ الإنسانيَّ حقيقةٌ قائمةٌ على التعدُّدِ في الأفراد والمُجتمعاتِ والشُّعوبِ والأديانِ والثقافاتِ والحضاراتِ، وهي تطرُحُ على العقلاءِ من البَشَرِ سؤالاً جوهرياً عن الصَّيْغةِ العمليَّةِ التي يُمكنُ الاعتمادُ عليها للعيشِ بسلام بينَ هذه الأفرادِ والجماعاتِ التي تختلفُ في انتماءاتها الدِّينيَّةِ وفي تنوُّعِ ثقافتها، فهل تتوقَّفُ دورةُ الحياةِ الاجتماعيةِ فيما بينهم على وفاقٍ تامٍّ بينَ تلكَ الانتماءاتِ المُتعدِّدةِ، وهو غيرُ موجودٍ، وصعبُ الحصولِ؟! أم نستسلمُ لمنطقِ الصِّراعِ بينَ الهُويَّةِ الدِّينيَّةِ وغيرها من الهُويَّاتِ والثقافاتِ؟ وفي ذلك الخطرُ الذي يجلبُ المآسي والويلاتِ للأممِ والشُّعوبِ، ويهدِّدُ حياتهم ومصيرهم على الأرضِ.

(١) المرجعُ الدينيُّ اللبنانيُّ.

وقد حاول بعضهم تفسير الحروب والصراعات على أنها نتيجة حتمية لتصادم الحضارات واختلاف الأديان والثقافات، ونحن نراها نظرية خاطئة؛ لأن معظم الصراعات المدمرة التي حدثت في التاريخ القديم والحديث قد وقعت بين أنظمة ودول من الحضارة الواحدة، ومن الدين الواحد في أحيان كثيرة، وكان حصولها لأسباب غير دينية؛ كحب السيطرة، وسياسة التوسع والهيمنة، والاستئثار بالسلطات، وامتلاك الثروات، ولو رجع أصحاب نظرية صدام الحضارات إلى رسالة الأديان؛ لوجدوا فيها الدعوة إلى إقامة العدل بين بني البشر جميعاً، وهي دعوة تزيل معظم أسباب الحروب والعداوات.

فالأديان تسهم من خلال تعاليمها ومنظومة القيم الموجودة فيها إلى ترشيد الإنسان، وإيصاله إلى مجموعة من القيم الإنسانية التي تلغي الفوارق بين الأمم والشعوب، وتوحد النظرة إلى الإنسان وحقوقه على اختلاف الأعراق والألوان.

والأديان كانت -وتبقى- جزءاً لا يتجزأ من تكوين الحضارة البشرية، وهي -الأديان- في أصل وجودها هادفة لإطفاء نار الاختلافات التي تحدث في المجتمع البشري، والتي يشعلها تلوث فطرة الإنسان السليمة بأوحال الأرض؛ من جشع وطمع وشهوة التسلط وغيرها من الشهوات، وقد أشار القرآن الكريم إلى الغاية من بعثة الأنبياء: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: الآية ٢١٣] .

إن الاختلاف بمعنى التعدد والتغاير، والتفاوت في الآراء والأفكار، هو سنة من سنن الله في خلقه، ولا يمكننا تغييرها، ولا بد لنا من التعايش معها، كما يشير إليها القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿٢﴾ .

فالقول بأن هناك تعدداً في الأفراد والجماعات ليس إلا اعترافاً بواقعنا الموجود الذي خلقنا الله عليه، وهو لا يعني وجود من نختلف معه وإن تعددت آراؤنا وأفكارنا؛ فالأديان

تقول لنا بأنكم من عائلةٍ بشريّةٍ واحدةٍ، وقد وَرَدَ في الإنجيل: «أما قرأتم أن الذي خَلَقَ مِنَ الْبَدءِ خَلَقَهُمَا ذَكَرًا وَأُنْثَى»^(١)، وفي القرآن الكريم: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ﴾ [الحُجَرَات: الآية ١٣] .

فالواحدُ مِنَّا يُساويه غيره ويُعادله في الإنسانية التي ننحدرُ فيها من أصلٍ واحدٍ، وهي التي تُشكِّلُ مَصْدَرًا لِلْمُسَاوَاةِ في الحقوق؛ فعندما نقولُ: نعيشُ معَ غيرنا، أو غيرنا يعيشُ معنا، فهذا يعني أننا نعيشُ معًا، أو أننا موجودون معًا في هذه الأرض التي خلَقنا الله منها، كما وَرَدَ في العهد القديم: «خَلَقَ الرَّبُّ الْإِنْسَانَ مِنَ الْأَرْضِ»^(٢)، ويُشيرُ إلى ذلك أيضًا القرآن الكريم: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هُود: الآية ٦١] ، وهذا يعني وجودَ شريكٍ لنا في العيش، وشريكٍ لنا في الوجود، وعندئذٍ تُخاطِبُنَا التعاليمُ الدِّينِيَّةُ الداعيةُ

(١) إنجيل متى: إصحاح ١٩، فقرة ٤ .

(٢) تمة سفر أستير: إصحاح ١٧، فقرة ١ .

للمساواة في الحقوق، كما جاء في الأثر: «أحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره لغيرك ما تكره لنفسك»^(١) وكما ورد في الإنجيل: «فكلُّ ما تريدون أن يفعلَ الناسُ بكم؛ افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم؛ لأنَّ هذا هو الناموسُ والأنبياءُ»^(٢)، وحتماً نحنُ نريدُ أن يعاملنا الناسُ بالحُسنى، فيجبُ أن نعاملهم بمثلها، والدينُ المعاملة؛ كما جاء في مضمون بعض النصوص الدينية.

ولذلك؛ يُمكن القولُ بأنَّ هذه من التعاليم الدينية التي أسهمت وتُسهم في إزالة الفوارق المزعومة والمُصطنعة بين بني البشر، وتُعبّر عن نظرة الدين إلى الحقوق المُتساوية والمُنبتقة عن الوحدة في الإنسانية التي يتساوى فيها الجميع، وقد أشارت إلى هذه الحقيقة الإنسانية الواحدة والمشاركة بين كلِّ الأفراد والشعوب: الشرائع السماوية.

(١) جزء من موعظة طويلة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عليه السلام. ينظر: كنز العمال (٤٤٢١٥).

(٢) إنجيل متى: إصحاح ٧، فقرة ١٢.

ولا شك بأن التعددية التي انبثقت عن هذا الأصل الواحد يُلازمها التباين والاختلاف في الآراء والأفكار والمعتقدات بين الشعوب والأفراد والجماعات، ولا يكاد يخلو وطن من الأوطان، ولا شعب من الشعوب، ولا أمة من الأمم من خصوصية التعدد في الثقافات والديانات والتقاليد والعادات، ولكن هذا لا يعني بالضرورة حصول الخلافات والنزاعات؛ لوجود الكثير من المشتركات التي تؤسس لبناء أفضل العلاقات، من خلال ثقافة الحوار التي تؤدي إلى التفاهم الذي يجنب المجتمعات في العالم آفة الحروب والنزاعات والصراعات.

وهذه التعاليم الإلهية تُعتبر عقداً اجتماعياً بين بني البشر عامة، ينظم العلاقة مع الآخر: الفرد مع الفرد، والجماعة مع الجماعة، والشعب مع الشعب، والأمة مع غيرها من الأمم، بعيداً عن خصائص الدين، والمعتقد، واللغة، والثقافة، واللون.

والذي يبدو من هذه التعاليم وغيرها أن بناء المجتمعات

البشريّة المنطلقة من أصلٍ واحدٍ، يعتمدُ على الأمور التي تشترك فيها جميعُ المكوّناتِ في المجتمعِ والوطنِ، وهي التي تكونُ منشأً لحقوقِ الأفرادِ والجماعاتِ المتواجدة فيه، وهذا ما ينسجمُ مع ترسيخِ مبدأِ المُواطنة التي يحملها الفردُ بصفته مواطناً يشتركُ معه في هذه الصّفة كلُّ الأفرادِ والجماعاتِ، وهي التي تكونُ منشأً لثبوتِ الواجباتِ عليه وعليهم تُجاه الوطنِ والمجتمعِ، ولا نرى في الإسلامِ ما يتنافى مع اعتمادِ المُواطنةِ قاعدةً في نظامِ الحكمِ والإدارة، وتوزيعِ الحقوقِ والواجباتِ، بعدالةٍ ومساواةٍ بينِ المواطنينِ، مع اختلافِ هُويّاتهمِ الدّينيّةِ والثّقافيّةِ، بل يُعدُّ اعتمادُ هذا الأمرِ موافقاً لقاعدةِ العدلِ والإنصافِ المُستفادة من آياتٍ عديدة؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: الآية ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: الآية ٨] .

وفي رسالة بولس: «أيتها السّادة، قدّموا للعبيد العدلَ

والمساواة، عالمين أن لكم أنتم أيضاً سيّداً في السماوات»^(١) وفي سفر اللاويين: «لا ترتكبوا جوراً في القضاء، لا تأخذوا بوجه مسكين . . . بالعدل تحكم لقريبك»^(٢).

ولا شك في أن العدالة هذه مُنبثقة عن المساواة التي كانت مصدراً للمساواة في الحقوق الإنسانية التي ارتكزت عليها أحكام العدالة.

وإذا كانت «المواطنة» تعني المساواة بين المواطنين؛ فهي تقع مورداً لتطبيق العدالة السماوية المطلوبة عليها، والمساواة التي تعنيها المواطنة هي من العدل الذي تقتضيه المساواة في الإنسانية ومما يُستفاد منه العمل بقاعدة المواطنة بمعناها المعاصر: قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: الآية ٨].

ونصوص دينية أخرى، مثل:

(١) رسالة بولس إلى أهل كولوسي: إصحاح ٤، فقرة ١.

(٢) سفر اللاويين: إصحاح ١٩، فقرة ١٥.

«الناسُ سواسيةٌ كأَسنانِ المُشْطِ»^(١).

و«الخلقُ كلُّهم عيالُ الله، وأحبُّهم إليه أنفعُهم لعياله»^(٢).

و«لا فضلَ لأحمرَ على أصفرَ، ولا لأبيضَ على أسودَ، ولا لعربيٍّ على أعجميٍّ، إلَّا بالتَّقوى»^(٣).

فإنَّ المواطنينَ قد يختلفون في أصولِ أعراقِهم وأديانِهم وانتماءاتهم، ولكنَّ المشتركَ بينهم في أوطانِهم يبقى واحدًا، وهو المُوَاطِنَةُ المُرتكِزةُ على المبادئِ الإنسانيَّةِ، وهم فيها على حدٍّ سواءٍ.

والمواطنونَ همُ الذين يُعبَّرُ عنهم في الفقهِ السِّيَاسِيِّ

(١) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في «أمثال الحديث» (١٦٦)، والشهاب القضاعي في «مسنده» (١٩٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٠٣٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٠٤٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٤٨٩) بلفظ مقارب، من طريق أبي نضرة عن سمع خطبة رسول الله ﷺ.

بـ«الرَّعِيَّةِ» كما جاء في جملة من النصوص الدينيّة، منها: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسئولٌ عن رعيّته، الإمام راعٍ ومسئولٌ عن رعيّته»^(١)، و«كلُّ سائسٍ إمامٌ»^(٢).

ووردت كلمة «الرَّعِيَّةِ» بهذا المعنى للمواطنة في كتاب الإمام عليّ عليه السلام إلى مالكٍ الأشرع عندما ولّاه على أهل مصر، وفيهم الأقباط المسيحيون وغيرهم من المسلمين: «أشعرُ قلبك المحبةَ للرعيّة والطفَ بهم والعطفَ عليهم، ولا تكوننَّ عليهم سبعا ضاريا تغنمُ أكلهم؛ فإنهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدين، أو نظيرُك في الخلق» وقوله: «وليكن أحبُّ الأمور إليك أوسطها في الحقّ، وأعمّها في العدل، وأجمعها لرعيّة».

ولا شك بأنّ العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠٩)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعا.

(٢) يُنسب إلى الإمام علي بن الحسين السّجاد رضي الله عنه، في رسالته المعروفة بـ«رسالة الحقوق».

الوطنية هي الأجمعُ لِرِضَى الرعيَّةِ وهم المواطنون، وهذا يعني أنَّ الحقوقَ المُنبثقةَ عن الشَّرَاكةِ في العيشِ والوطنِ لا يتمُّ توزيعُها على أساسٍ دينيٍّ وطائفيٍّ، وإنَّما على أساسٍ من الإنسانيةِ التي يتساوَى فيها الجميعُ وعلى أساسٍ من الشَّرَاكةِ الوطنيةِ التي جَعَلَتْ منهم رعيَّةً واحدةً يستحقُّونَ الرعايةَ والحمايةَ بلا تفاوُتٍ، وهذا ما نعينه ونقصدهُ بالمُواطنةِ التي يقومُ عليها النظامُ السياسيُّ الذي يُساوي في تشريعاته وأحكامه وقوانينه بينَ المواطنين، مع حقِّ احتفاظِ كلِّ فردٍ أو جماعةٍ بالخصوصيَّاتِ الدِّينيةِ والسِّيَاسِيَّةِ التي لا تتنافى معَ العقدِ الاجتماعيِّ الذي قامَتْ عليه قواعدُ النظامِ.

قال الشاعرُ:

ما دمتَ محترماً حقِّي فأنتَ أخي
أَمَنْتَ بِاللَّهِ أَمْ أَمَنْتَ بِالْحَجَرِ
شكراً لكم، والسَّلامُ عليكم.



الجلسةُ الرَّابِعةُ
عَقَبَاتٌ فِي طَرِيقِ الْحَوَارِ وَالتَّعَايِشِ
وَالْحُلُولِ الْمُمْكِنَةِ

عَقَبَاتُ الْجَوَارِ الدِّينِيِّ، وَبَعْضُ الْحُلُولِ

فيما بين المسلمين والمسيحيين

حسن الشافعي^(١)

مقدمة :

١ - عاشَ المسلمون والمسيحيون (بل واليهودُ أيضًا)، في بلادِ العالمِ العربيِّ والإسلاميِّ، قرونًا عدَّةً، في إخاءٍ ووَئامٍ وتضامُنٍ، قد تَحَدَّثُ بينهم أحداثٌ غيرُ إيجابيّةٍ، لكنَّ قوَّةَ العلاقةِ، وأُسَسَ التَّضامِنِ، ومناخَ التَّفاهُمِ تتكفَّلُ بتجاوُزِها واستيعابِها، وبقاءِ التَّضامُنِ الاجتماعيِّ سليماً في جملته .

٢ - ثم نشأت ظروفٌ في النِّصفِ الثَّاني من القرنِ الماضي، والعقدين اللّذين قاربا الاكتمالَ من القرنِ الحاليِّ، أدَّت إلى تعقُّد تلك العلاقات التَّاريخيّةِ المِثاليَّةِ إذا قُورنت بالعلاقاتِ الدِّينيةِ في الغربِ، بل أدَّت إلى تأزُّمِها أحياناً؛ ممَّا

(١) عضو هيئة كبار العلماء، وعضو مجلس حكماء المسلمين، ورئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

قضى إلى تكرر الظواهر السلبية التي تسمى أحياناً بـ«الفتن الطائفية»، فتعالج أو تُتناسى، ولكنها تترك ندوباً في التّضامن المجتمعي والعيش المشترك، اللّذين عُرِفَت بهما المنطقة.

ولعلّ هذه المشكلات والظواهر السلبية تكثفت، واستعصى بعضها على جهود الحلّ والاحتواء، فأخذت شكلاً جديداً خطراً ينبغي التنبّه له، ليس أقلّه «الهجرة شبه الجماعية» من الإخوة المسيحيين الشرقيين إلى بلاد الغرب، وقيام مشكلات أو مذابح بين الكاثوليك والمسلمين في النّيجر، وغير ذلك ممّا يُهدّد العلاقات الأخوية التقليدية.

٣- وسنحاول -في الفقرتين التّاليتين- أن نُلقي الضوء على أهمّ الأساسيات التي أدّت إلى هذا التّغير أو التّأزم، وما ينبغي اتّخاذه من إجراءات لحلّها أو مواجهتها.

(أ)

١- أوّل هذه العوامل التي أثّرت في استقرار التّضامن والعيش المشترك: غلبة ثقافة التّفكير والتّصرف الطائفي على عديد من المناطق والبلدان، وهو أمر لا يقتصر على جانب

دونَ آخر، ممّا نتج عنه تسيّسُ بعضِ المشكلات، وتباعُدُ كتلِ الشّباب في الجانبين لينموَ نوعٌ من مشاعرِ التّوجّسِ، بدلاً من التّضافرِ والتّشاركِ الذي يُزكي التّفاهمَ والثّقة، وهو الذي تأكّدَ في مصر - إذا أخذنا ذلك مثلاً - في ظروف الثّورة الوطنيّة عام ١٩١٩م، ورسّخت الفترة الليبراليّة ذلك التّضامنَ بها؛ إذ كانت الأحزابُ المدنيّة، بل المنظّماتُ الدّينيّة كالشّبان المسيحية والشّبان المسلمين مجالاً حيويّاً للرّجال والشّباب من الجانبين دون تمييز، ثمّ جاءت ظروف أدّت إلى انعزالِ الشّبابِ المسيحيّ إلى داخلِ الكنيسة، واضطرابِ أحوالِ بعضِ الشّبابِ المسلم تأثراً ببلادٍ لا تعرفُ التّعدديّة الدّينيّة، وسوءِ فهمٍ لبعضِ القيمِ الإسلاميّة، وهو ما أسميته بشيوعِ ثقافةِ الشّعورِ والتّفكيرِ والتّصرّفِ الطّائفيّ في الجانبين، ولستُ بحاجة فيما أعتقِد أن أشيرَ إلى أزمة لبنان الذي كان قرابة القرنِ نموذجاً لاستقرارِ التّضامنِ، فنشأت الكتائبُ وغيرها، ثم نشأت بعدها منظّماتٌ أخرى موازيّة، فكان التّأزّم الطارئ، الذي وصلَ إلى التّقاتلِ أو الحربِ الأهليّة .

٢- ومن العواملِ أيضًا، الاتِّكَالُ على الرِّصِيدِ التَّارِيخِيِّ من الإِخَاءِ والتَّضَامِنِ، وعدمُ إِرْسَائِهِ على أَرْضٍ صُلْبَةٍ؛ من الدَّسَاتِيرِ القائمةِ على المواطنة والعيشِ المشتركِ، لا الطَّائِفِيَّةِ والمُحَاصَصَةِ، والقوانينِ التي تُوَكِّدُ المساواةَ وتحفظُ الحقوقَ، بصرفِ النَّظَرِ عن الدِّينِ والجنسِ والأصلِ وغيرها من الاعتباراتِ، وحتى لو وُجِدَ القانونُ فَإِنَّ التَّفْعِيلَ والتَّطْبِيقَ المتلكِّى يُضَعِّفُ أثرَهُ المنشودَ.

٣- ومن العواملِ البالغةِ التَّأثيرِ الحروبُ الدَّوْلِيَّةُ والغزوُ الخارجِيُّ: لقد كانت المنطقةُ عُرْضَةً -بعد الثَّوراتِ الوَطَنِيَّةِ وأُفُولِ الاستعمارِ المدعومِ بالاحتلالِ العسكريِّ- للغزوِ الفِكْريِّ والثَّقَافِيِّ، ولم تكن آثارُهُ قليلةً، فقد كان الاستعمارُ يلعبُ عادةً على وترِ الطَّائِفِيَّةِ، فينجحُ أحياناً ويفشلُ أحياناً، ولكن في العقودِ الأخيرة تحوَّلَ ذلك -لأسبابٍ معلَّنةٍ وأخرى غيرِ معلَّنةٍ- إلى إخواننا من نصارى الشَّرْقِ -وهم وأقباطُ مصرَ من أعرقِ الطَّوائِفِ المِسيحيَّةِ وأكثرها ولاءً لأوطانها- فاتجهوا إلى ضربِ من الهِجرةِ الجماعيَّةِ كما ذكرت، وهو تطوُّرٌ خطيرٌ، يهدِّدُ حضارتنا المشتركةَ وصورةَ الحياةِ ونمطها

في منطقتنا، وقد فاقمت ذلك التَّوابعُ التي ترتَّبت على حرب العراق وما يسمَّى بحرب الإرهاب، ثم إشاعة الفوضى الخلَّاقة، وأدت جميعها إلى زيادة المخاطر التي تهدد الجميع في واقع الأمر، ولكنَّ سياسات الهجرة الغربيَّة فتحت الأبواب للإخوة النَّصارى ونشأ من عوامل الطرد المحليَّة وعوامل الإغراء الخارجيَّة ما أسميُّه بالهجرة شبه الجماعيَّة للمسيحيين الشَّرقيين، وهو خسارة كبرى لمجتمعاتنا العربيَّة كلَّها، وما تزال هذه الظروف - للأسف - مستمرَّة، وقد قرأت وأنا أكتب هذه السُّطور في أواخر نوفمبر الماضي أنَّ الإخوة النَّصارى من أهالي (برطلة) و(الحمدانية) في جنوب الموصل يحاولون العودة إلى ديارهم، بعد انسحاب «الدَّاعِشيين» للاطمئنان على ممتلكاتهم وبيوتهم، فتمنعُهم السُّلطات العراقيَّة، وها قد وصل الحديث إلى «داعش» ومأساتها، ووحشية تعاملها مع الكلِّ، ولكن مع المسيحيين والأزديدين بوجه خاص.

وفي هذا المناخ المضطرب تكاثرت حركات العنف بالمنطقة، وزادت الأخطار التي تهدد طمأنينة العيش،

وخصوصاً في المجتمعات المتعدّدة الأديان كالعراق والشّام، ولا بد من إطفاء هذه الحرائق وتوابعها، والسّعي لعودة إخوتنا المهاجرين.

(ب)

بعض الحلول:

إنّ التّحليل السّابق لهذه العوامل الثّلاث التي أدّت -ضمن عوامل أخرى بلا شك فكريّة وسياسيّة واجتماعيّة- إلى تفاقم أوضاع العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة وتعثّر الحوار، الأمر الذي يدعونا للبحث عن الحلول والعلاج، وأهمّ ذلك ما يلي:

١- ترسيخ ثقافة المواطنة بدلاً من الثقافة الطائفية، وحصار الفكر الطائفي والنزعات المتشدّدة، أيّاً كان مصدرها، وفي أيّ جانب تكون، واستعادة التّاريخ الوطني والحضاريّ المشترك، في مواجهة الاحتلال والتّخلف.

ومن أهمّ الأمور تقريب الشّباب من الجانبين، في مناخ حرّ، للعمل الوطنيّ المشترك، الذي ينمي مشاعر التّفاهم والثّقة والولاء للمجتمع الواحد، بدلاً من الاعتزال أو

الإقصاء الذي يولّد المشاعر الطائفية السلبية، وهذا الجهد الثقافي بالغ الأهمية كالخطوات الإجرائية التي من أهمها إرساء العلاقات بين عناصر الوطن على أساس واضح من التنظيم الدستوري الذي يقوم على الوحدة الوطنية لا الطائفية، والذي يقرّر المساواة الكاملة بين أبناء الوطن الواحد دون تفرقة أو تمييز من أي نوع، أو على أي أساس: ديني أو عرقي أو جنسي أو غيره، وأن يجسّد القانون هذه الأصول، وما ينبثق منها من حقوق، ويضفي عليه الحماية والشرعية التي لا بد أن تعتبرها الدولة أهم مسؤولياتها.

٢- بذل جهود خاصة موجّهة للشباب المسلم، الذي يميل بطبيعته للحياة الدينية، دون أن تظاهرها ثقافة شرعية، وقد يبتلى بنزعات متشددة تنحرف به عن التدنّ الصّحيح، والفكر الديني السليم، وذلك من جانبيين:

أولهما: بيان حقيقة الدين الإسلامي، ومعاملته لأهل الكتاب خاصة، وسائر المخالفين في الدين، مع بيان المكانة الخاصة للسيد المسيح ولأتباعه في الشريعة عمومًا، والقرآن الكريم خصوصًا، وما تميّزوا به من التواضع والرفّة

والمودَّة والرَّحمة وبالأخصَّ في سورتي المائدة والحديد، بالإضافة للأحاديث النبويَّة الصَّحيحة التي عظمت حقَّ المواطنين الذين هم في ذمَّة الله ورسوله.

والآخر: استدعاء التاريخ الوطني المشترك في مواجهة المستعمرين، وما سجَّله الإخوة المسيحيون من نضال -لا يُنكر- ضدَّهم، ورفضهم محاولات المستعمر اللَّعب على الوتر الطائفي في سياسته التَّقليديَّة، «فرَّق تسد»، ومواقف البطارقة والقادة المسيحيين إزاء الصَّليبيين في الماضي والصَّهاينة في الحاضر ومشاركتهم المسلمين في المقاومة دفاعاً عن الوطن والقيم والثَّقافة المشتركة، وقد سمعتُ بعض القادة المعاصرين يردُّ ما كان يقوله الزَّعيمُ القبطيُّ مكرم عبيد: «أنا مسيحيُّ العقيدة، عربيُّ اللِّسان، مسلمُ الثَّقافة» وقد كان جيلنا ومَن قبلنا أيضًا يتعاملُ مع الإخوة المسيحيين على أساسٍ من هذه الاعتبارات، ولكنَّ الجيل الجديد من الشَّباب المسلم الحائر في مُجتمعاتنا الآن في حاجةٍ إلى بذلِ هذا الجُهد الخاصِّ.

والله وليُّ التَّوفيق.